قرنت أيديهم إلى أرجلهم مغللين وقوله: ﴿في الأصفاد﴾ إمّا أن: يتعلق بمقرنين أي: يقرنون في الأصفاد، وإمّا أن لا يتعلق به، فيكون المعنى مقرنين مصفدين، والأصفاد: القيود، وقيل: الأغلال، وأنشد لسلامة بن جندل:

وزيد الخيل قد لاقى صفادًا يعض بساعد وبعظم ساق

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠﴾.

القطران فيه ثلاث لغات: قطران، وقطران، وقطران، بفتح القاف وكسرها مع سكون الطاء وهو: ما يتحلب من شجر يسمى: الأبهل فيطبخ فتهنأ به الإبل الجربى، فيحرق الجرب بحره وحدته والجلد وقد تبلغ حرارته الجوف، ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار، وقد يستسرج به، وهو أسود اللون منتن الريح، فتطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل وهي: القمص، لتجتمع عليهم الأربع: لذع القطران، وحرقته، وإسراع النار في جلودهم، واللون الوحش، ونتن الريح، على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين، وكل ما وعده الله أو أوعد به في الآخرة فبينه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره، وكأنه ما عندنا منه إلا الأسامي والمسميات ثمة، فبكرمه الواسع نعوذ من سخطه، ونسأله التوفيق فيما ينجينا من عذابه، وقرئ: من قطرآن والقطر: النحاس أو الصفر المذاب والآني المتناهي حرجه ﴿وتغشى وجوههم النار﴾ كقوله تعالى: ﴿فمن يتقي بوجهه سوء العذاب﴾[1] ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم﴾[2] لأن الوجه أعز موضع في ظاهر البدن وأشرفه كالقلب في باطنه ولذلك قال: ﴿تطلع على الأفئدة﴾[3] وقرئ: وتغشى وجوههم بمعنى: تغشى. أي: يفعل بالمجرمين ما يفعل.

﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٥١﴾.

﴿ليجزي الله كل نفس﴾ مجرمة ﴿ما كسبت﴾ أو كل نفس من مجرمة ومطيعة، لأنه إذا عاقب المجرمين لإجرامهم علم أنه يثيب المطيعين لطاعتهم.

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٢﴾.

﴿هذا بلاغ للناس﴾ كفاية في التذكير والموعظة يعني: بهذا ما وصفه من قوله: ولا تحسبن إلى قوله: سريع الحساب ﴿ولينذروا﴾ معطوف على محذوف أي: لينصحوا ولينذروا ﴿به﴾ بهذا البلاغ، وقرئ: ولينذروا بفتح الياء من نذر به إذا علمه واستعدله ﴿وليعلموا إنما هو إله واحد﴾ لأنهم إذا خافوا ما أنذروا به دعتهم المخافة إلى النظر حتى يتوصلوا إلى التوحيد؛ لأن الخشية أمّ الخير كله.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة إبراهيم أعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد كل من عبد الأصنام وعدد من لم يعبد»[4].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الحجـر مكية

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١﴾.

﴿تلك﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات. والكتاب والقرآن المبين السورة، وتنكير القرآن للتفخيم، والمعنى: تلك آيات الكتاب الكامل في كونه كتابًا وأي قرآن مبين، كأنه قيل: الكتاب الجامع للكمال والغرابة في البيان.

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾.

قرئ: ربما وربتما بالتشديد وربما وربما بالضم والفتح مع التخفيف.

فإن قُلْتَ: لم دخلت على المضارع وقد أبوا دخولها إلا على الماضي؟ **قُلْتُ:** لأنّ المترقب في إخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه فكأنه قيل: ربما ودّ.

فإن قُلْتَ: متى تكون ودادتهم؟ **قُلْتُ:** عند الموت، أو يوم القيامة إذا عاينوا حالهم وحال المسلمين، وقيل: إذا رأوا المسلمين يخرجون من النار، وهذا أيضًا باب من الودادة.

فإن قُلْتَ[5]: فما معنى التقليل؟ **قُلْتُ:** هو وارد على مذهب العرب في قولهم: لعلك ستندم على فعلك، وربما ندم الإنسان على ما فعل، ولا يشكون في تندمه ولا يقصدون

---

(1) سورة الزمر، الآية: 24.

(2) سورة القمر، الآية: 48.

(3) سورة الهمزة، الآية: 7.

(4) ذكره ابن مردويه والواحدي ذكره (الزيلعي 2/205).

(5) قال أحمد: لا شك أن العرب تعبر عن المعنى، بما يؤدّي عكس مقصوده كثيراً، ومنه قوله:

قد أترك القرن مصفراً أنامله

وإنما يمتدح بالإكثار من ذلك، وقد عبر بقد المفيدة للتقليل، ومنه والله أعلم، وقد تعلمون أني رسول الله، والمقصود: توبيخهم على أذاهم لموسى عليه السلام، على توفر علمهم برسالته، ومناصحته لهم، وقد اختلف توجيه علماء البيان لذلك، فمنهم من وجهه بما= = ذكره الزمخشري آنفاً، من التنبيه بالأدنى على الأعلى، ومنهم من وجهه بأن المقصود في ذلك: الإيذان بأن المعنى قد بلغ الغاية، حتى كاد أن يرجع إلى الضدّ، وذلك شأن كل ما انتهى لنهايته، أن يعود إلى عكسه، وقد أفصح أبو الطيب ذلك بقوله:

ولجدت حتى كدت تبخل حائلاً للمنتهى ومن السرور بكاء

وكلا هذين الوجهين، يحمل الكلام على المبالغة بنوع من الإيقاظ إليها، والعمدة في ذلك على سياق الكلام: لأنه إذا اقتضى مثلاً تكثيراً، فدخلت فيه عبارة يشعر ظاهرها بالتقليل، استيقظ السامع بأن المراد: المبالغة على إحدى الطريقتين المذكورتين، والله أعلم.

obeikandl.com

تقليله، ولكنهم أرادوا لو كان الندم مشكوكًا فيه أو كان قليلاً لحق عليك أن لا تفعل هذا الفعل؛ لأنّ العقلاء يتحرّزون من التعرّض للغم المظنون كما يتحرّزون من المتيقن، ومن القليل منه كما من الكثير، وكذلك المعنى في الآية: لو كانوا يودون الإسلام مرة واحدة فبالحري أن يسارعوا إليه، فكيف وهم يودونه في كل ساعة ﴿لو كانوا مسلمين﴾ حكاية ودادتهم، وإنما جيء بها على لفظ الغيبة لأنهم مخبر عنهم كقولك: حلف بالله ليفعلن، ولو قيل: حلف بالله لأفعلنّ، ولو كنا مسلمين لكان حسنًا سديدًا، وقيل: تدهشهم أهوال ذلك اليوم فيبقون مبهوتين، فإن حانت منهم إفاقة في بعض الأوقات من سكرتهم تمنوا فلذلك قلل.

ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾.

﴿ذرهم﴾ يعني: اقطع طمعك من ارعوائهم ودعهم عن النهي عما هم عليه والصد عنه بالتنكرة والنصيحة وخلهم ﴿ياكلوا ويتمتعوا﴾ بدنياهم وتنفيذ شهواتهم، ويشغلهم أملهم وتوقعهم لطول الأعمار واستقامة الأحوال وأن لا يلقوا في العاقبة إلا خيرًا ﴿فسوف يعلمون﴾ سوء صنيعهم، والغرض الإيذان بأنهم من أهل الخذلان، وأنهم لا يجيء منهم إلا ما هم فيه، وأنه لا زاجر لهم ولا واعظ إلا معاينة ما ينذرون به حين لا ينفعهم الوعظ، ولا سبيل إلى اتعاظهم قبل ذلك، فأمر رسوله بأن يخليهم وشأنهم ولا يشتغل بما لا طائل تحته، وأن يبالغ في تخليتهم حتى يأمرهم بما لا يزيدهم إلا ندمًا في العاقبة، وفيه إلزام للحجة ومبالغة في الإنذار وإعذار فيه، وفيه تنبيه على أنّ إيثار التلذذ والتنعم وما يؤدي إليه طول الأمل، وهذه هجيري أكثر الناس ليس من أخلاق المؤمنين، وعن بعضهم: التمرغ في الدنيا من أخلاق الهالكين.

وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾.

﴿ولها كتاب﴾ جملة واقعة صفة لقرية، والقياس أن لا يتوسط الواو بينهما كما في قوله تعالى: ﴿وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون﴾[1] وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف كما يقال في الحال: جاءني زيد عليه ثوب، وجاءني وعليه ثوب كتاب ﴿معلوم﴾ مكتوب معلوم، وهو: أجلها الذي كتب في اللوح وبين، ألا ترى إلى قوله ﴿ما تسبق من أمة أجلها﴾ في موضع كتابها وأنث الأمة أوّلاً ثم ذكرها آخرًا حملاً على اللفظ والمعنى، وقال: ﴿وما يستاخرون﴾ بحذف عنه؛ لأنه معلوم.

وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾.

قرأ الأعمش يا أيها الذي ألقي عليه الذكر، وكان هذا النداء منهم على وجه الاستهزاء كما قال فرعون: ﴿إنّ رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾[2] وكيف يقرون بنزول الذكر عليه وينسبونه إلى الجنون، والتعكيس في كلامهم للاستهزاء والتهكم مذهب واسع، وقد جاء في كتاب الله في مواضع منها، ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾[3] ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾[4] وقد يوجد كثيرًا في كلام العجم والمعنى: إنك لتقول قول المجانين حين تدعي أنّ الله نزل عليك الذكر.

لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾.

لو ركبت مع لا وما لمعنيين، معنى: امتناع الشيء لوجود غيره، ومعنى: التحضيض، وأما هل فلم تركب إلا مع لا وحدها للتحضيض. قال ابن مقبل:

لوما الحياء ولوما الدين عبتكما ببعض ما فيكما إذ عبتما عوري

والمعنى: هلا تأتينا بالملائكة يشهدون بصدقك ويعضدونك على إنذارك كقوله تعالى: ﴿لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرًا﴾[5] أو هلا تأتينا بالملائكة للعقاب على تكذيبنا لك إن كنت صادقًا كما كنت تأتي الأمم المكذبة برسلها.

مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾.

قرئ: تنزل بمعنى: تتنزل وتنزل على البناء للمفعول من نزل وننزل الملائكة بالنون ونصب الملائكة ﴿إلا بالحق﴾ إلا تنزلاً ملتبسًا بالحكمة والمصلحة، ولا حكمة في أن تأتيكم عيانًا تشاهدونهم ويشهدون لكم بصدق النبي ﷺ؛ لأنكم حينئذ مصدقون عن اضطرار ومثله قوله تعالى: ﴿وما خلقنا السمٰوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾[6] وقيل: الحق الوحي أو العذاب و ﴿إذًا﴾ جواب وجزاء؛ لأنه جواب لهم، وجزاء لشرط مقدر تقديره: ولو نزلنا الملائكة ما كانوا منظرين وما أخر عذابهم.

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾.

﴿إنا نحن نزلنا الذكر﴾[7] ردّ لإنكارهم واستهزائهم في قولهم: ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر﴾[8] ولذلك قال: ﴿إنا نحن﴾ فأكّد عليهم أنه هو المنزل على القطع والبتات، وأنه هو الذي بعث به جبريل إلى محمد ﷺ وبين يديه ومن خلفه رصد حتى نزل وبلغ محفوظًا من الشياطين، وهو حافظ في كل وقت من كل زيادة ونقصان

---

(1) سورة الشعراء، الآية: 208.
(2) سورة الشعراء، الآية: 27.
(3) سورة آل عمران، الآية: 21.
(4) سورة هود، الآية: 87.
(5) سورة الفرقان، الآية: 7.
(6) سورة الحجر، الآية: 85.
(7) قال أحمد: ويحتمل أن يراد: حفظه مما يشينه، من تناقض واختلاف لا يخلو عنه الكلام المفتري، وذلك أيضاً من الدليل على أنه من عند الله، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾.
(8) سورة الحجر، الآية: 6.

وتحريف وتبديل، بخلاف الكتب المتقدمة فإنه لم يتول حفظها، وإنما استحفظها الربانيين والأحبار فاختلفوا فيما بينهم بغيًا فكان التحريف، ولم يكل القرآن إلى غير حفظه.

فإن قُلْتَ: فحين كان قوله: **﴿إنا نحن نزلنا الذكر﴾** ردًا لإنكارهم واستهزائهم فكيف اتصل به قوله: **﴿وإنا له لحافظون﴾**؟ **قُلْتُ:** قد جعل ذلك دليلاً على أنه منزل من عنده آية؛ لأنه لو كان من قول البشر أو غير آية لتطرق عليه الزيادة والنقصان كما يتطرق على كل كلام سواء، وقيل: الضمير في له لرسول الله ﷺ كقوله تعالى: **﴿والله يعصمك﴾**[1].

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾.

﴿في شيع الأوّلين﴾ في فرقهم وطوائفهم، والشيعة: الفرقة إذا اتفقوا على مذهب وطريقة، ومعنى أرسلناه فيهم: نبأناه فيهم وجعلناه رسولاً فيما بينهم.

﴿وما يأتيهم﴾ حكاية حال ماضية؛ لأنّ ما لا تدخل على مضارع إلا وهو في معنى الحال، ولا على ماض إلا وهو قريب من الحال.

كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾.

يقال: سلكت الخيط في الإبرة وأسلكته إذا أدخلته فيها ونظمته، وقرئ: نسلكه والضمير للذكر أي: مثل ذلك السلك ونحوه نسلك الذكر في **﴿قلوب المجرمين﴾**[2] على معنى: أنه يلقيه في قلبهم مكذبًا مستهزأ به غير مقبول، كما لو أنزلت بلئيم حاجة فلم يجبك إليها فقلت: كذلك أنزلها باللئام تعني: مثل هذا الإنزال أنزلها بهم مردودة غير مقضية، ومحل قوله: **﴿لا يؤمنون به﴾** النصب على الحال أي: غير مؤمن به، أو هو بيان لقوله: **﴿كذلك لنسلكه﴾ ﴿سنة الأولين﴾** طريقتهم التي سنها الله في إهلاكهم حين كذبوا برسلهم وبالذكر المنزل عليهم، وهو وعيد لأهل مكة على تكذيبهم.

وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾.

قرئ*: يعرجون بالضم والكسر و **﴿سكرت﴾** حيرت أو حبست من الأبصار من السكر، أو السكر، وقرئ*: سكرت بالتخفيف أي: حبست كما يحسب النهر من الجري، وقرئ*: سكرت من السكر أي: حارت كما يحار السكران، والمعنى: أنّ هؤلاء المشركين بلغ من غلوهم في العناد أن لو فتح لهم باب من أبواب السماء، ويسر لهم معراج يصعدون فيه إليها ورأوا من العيان ما رأوا لقالوا: هو شيء نتخايله لا حقيقة له، ولقالوا: قد سحرنا محمد بذلك، وقيل: الضمير للملائكة أي: لو أريناهم الملائكة يصعدون في السماء عيانًا لقالوا ذلك. وذكر الظلول ليجعل عروجهم بالنهار ليكونوا مستوضحين لما يرون، وقال: إنما ليدل على أنهم يبتون القول بأنّ ذلك ليس إلا تسكيرًا للأبصار.

إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾.

﴿من استرق﴾ في محل النصب على الاستثناء، وعن ابن عباس: أنهم كانوا لا يحجبون عن السمٰوات فلما ولد عيسى منعوا من ثلاث سمٰوات، فلما ولد محمد منعوا من السمٰوات كلها **﴿شهاب مبين﴾** ظاهر للمبصرين **﴿موزون﴾** وزن بميزان الحكمة وقدر بمقدار تقتضيه لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان، أوله وزن وقدر في أبواب النعمة والمنفعة، وقيل: ما يوزن من نحو الذهب والفضة والنحاس والحديد وغيرها.

وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾.

﴿معايش﴾ بياء صريحة بخلاف الشمائل والخبائث ونحوهما، فإن تصريح الياء فيها خطأ، والصواب الهمزة أو إخراج الياء بين بين، وقد قرئ*: معائش بالهمز على التشبيه **﴿ومن لستم له برازقين﴾** عطف على معايش أو على محل لكم كأنه قيل: وجعلنا لكم فيها معايش وجعلنا لكم من لستم له برازقين، أو وجعلنا لكم معايش ولمن لستم له برازقين وأراد بهم العيال والمماليك والخدم الذين يحسبون أنهم يرزقونهم ويخطئون، فإنّ الله هو الرزاق

---

(1) سورة المائدة، الآية: 67.

(2) قال أحمد: والمراد والله أعلم: إقامة الحجة على المكذبين، بأنّ الله تعالى سلك القرآن في قلوبهم، وأدخله في سويدائها، كما سلك ذلك في قلوب المؤمنين المصدّقين، فكذب به هؤلاء، وصدّق به هؤلاء، كل على علم وفهم، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيّ عن بينة، ولئلا يكون للكفار على الله حجة، بأنهم فهموا وجوه الإعجاز كما فهمها من آمن، فأعلمهم الله تعالى من الآن وهم في مهلة، وإمكان أنهم ما كفروا إلا على علم، معاندين، باغين، غير معذورين، والله أعلم، ولذلك عقبة الله تعالى بقوله: **﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾** أي: هؤلاء فهموا القرآن، = وعلموا وجوه إعجازه، وولج ذلك في قلوبهم ووقر، ولكنهم قوم سجيتهم العناد، وشيمتهم اللدد، حتى لو سلك بهم أوضح السبيل وأدعاها إلى الإيمان، بضرورة المشاهدة، وذلك بأن يفتح لهم باباً في السماء، ويعرج بهم إليهم، حتى يدخلوا منه نهاراً، وإلى ذلك أشار بقوله: **﴿فظلوا﴾** لأن الظلول إنما يكون نهاراً، لقالوا بعد هذا الإيضاح العظيم المكشوف: **﴿إنما سكرت أبصارنا﴾** وسحرنا محمد، وما هذه إلا خيالات لا حقائق تحتها، فأسجل عليهم بذلك أنهم لا عذر لهم في التكذيب من عدم سماع، ووعي، ووصول إلى القلوب، وفهم كما فهم غيرهم من المصدّقين؛ لأنّ ذلك كله حاصل لهم، وإنما بهم العناد، واللدد، والإصرار لا غير، والله أعلم.

يرزقهم وإياهم ويدخل فيه الأنعام والدواب وكل ما بتلك المثابة مما الله رازقه، وقد سبق إلى ظنهم أنهم هم الرازقون، ولا يجوز أن يكون مجرورًا عطفًا على الضمير المجرور في لكم؛ لأنه لا يعطف على الضمير المجرور.

وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾.

ذكر الخزائن تمثيل والمعنى: وما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه والإنعام به، وما نعطيه إلا بمقدار معلوم نعلم أنه مصلح له، فضرب الخزائن مثلاً لاقتداره على كل مقدور.

وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾.

﴿لواقح﴾ فيه قولان: أحدهما: أنّ الريح لاقح إذا جاءت بخير من إنشاء سحاب ماطر كما قيل: للتي لا تأتي بخير ربح عقيم، والثاني: أنّ اللواقح بمعنى الملاقح كما قال:

ومختبط مما تطيح الطوائح

يريد المطاوح جمع مطيحة، وقرئ: وأرسلنا الريح على تاويل الجنس **﴿فاسقيناكموه﴾** فجعلنا لكم سقيا **﴿وما انتم له بخازنين﴾** نفى عنهم ما أثبته لنفسه في قوله: **﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾**[1] كأنه قال: نحن الخازنون للماء على معنى نحن القادرون على خلقه في السماء وإنزاله منها وما أنتم عليه بقادرين، دلالة على عظيم قدرته وإظهارًا لعجزهم **﴿ونحن الوارثون﴾** أي: الباقون بعد هلاك الخلق كله، وقيل للباقي: وارث استعارة من وارث الميت لأنه يبقى بعد فنائه، ومنه قوله ﷺ في دعائه: «واجعله الوارث منا»[2].

وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾.

﴿ولقد علمنا﴾ من استقدم ولادة وموتًا، ومن تأخر من الأوّلين والآخرين، أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد، أو من تقدم في الإسلام وسبق إلى الطاعة ومن تأخر، وقيل: المستقدمين في صفوف الجماعة والمستأخرين، وروي: أن امرأة حسناء كانت في المصليات خلف رسول الله ﷺ، فكان بعض القوم يستقدم لئلا ينظر إليها وبعض يستأخر ليبصرها[3] فنزلت **﴿هو يحشرهم﴾** أي: هو وحده القادر على حشرهم والعالم بحصرهم مع إفراط كثرتهم وتباعد أطراف عددهم **﴿إنه حكيم عليم﴾** باهر الحكمة واسع العلم، يفعل كل ما يفعل على مقتضى الحكمة والصواب، وقد أحاط علمًا بكل شيء.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾.

الصلصال الطين اليابس الذي يصلصل. وهو غير مطبوخ، وإذا طبخ فهو فخار، قالوا: إذا توهمت في صوته مدًّا فهو صليل، وإن توهمت فيه ترجيعًا فهو صلصلة، وقيل: هو تضعيف صل إذا أنتن، والحمأ: الطين الأسود المتغير، والمسنون: المصوّر من سنة الوجه، وقيل: المصبوب المفرغ أي: أفرغ صورة إنسان كما تفرغ الصور من الجواهر المذابة في أمثلتها، وقيل: المنتن من سننت الحجر على الحجر إذا حككته به فالذي يسيل بينهما سنين ولا يكون إلا منتنًا **﴿من حما﴾** صفة لصلصال أي: خلقه من صلصال كائن من حمأ، وحق **﴿مسنون﴾** بمعنى: مصور أن يكون صفة لصلصال كأنه أفرغ الحمأ فصور منها تمثال إنسان أجوف فيبس، حتى إذا نقر صلصل، ثم غيره بعد ذلك إلى جوهر آخر.

وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾.

﴿والجانّ﴾ للجن كآدم للناس، وقيل: هو إبليس، وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد: والجأن بالهمز **﴿من نار السموم﴾** من نار الحر الشديد النافذ من المسام، قيل: هذه السموم جزء من سبعين جزأ من سموم النار التي خلق الله منها الجانّ.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾.

﴿إذ قال ربك﴾ وانكر وقت قوله: **﴿سويته﴾** عدلت خلقته وأكملتها وهيأتها لنفخ الروح فيها، ومعنى **﴿ونفخت فيه من روحي﴾** وأحييته وليس ثمة نفخ ولا منفوخ، وإنما هو تمثيل لتحصيل ما يحيا به فيه. واستثنى إبليس من الملائكة؛ لأنه كان بينهم مأمورًا معهم بالسجود فغلب اسم الملائكة، ثم استثنى بعد التغلب كقولك: رأيتهم إلا هندًا و **﴿أبى﴾** استئناف على تقدير قول قائل يقول: هلا سجد؟ فقيل: أبى ذلك واستكبر عنه، وقيل: معناه ولكن إبليس أبى.

قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾.

حرف الجر مع أن محذوف وتقديره **﴿ما لك﴾** في **﴿ألا تكون مع الساجدين﴾** بمعنى أيّ غرض لك في إبائك السجود وأي داع لك إليه؟ اللام في **﴿لأسجد﴾** لتأكيد النفي ومعناه: لا يصحّ مني وينافي حالي ويستحيل أن أسجد لبشر.

---

(1) سورة الحجر، الآية: 21.

(2) رواه الترمذي في كتاب: «الدعوات» باب (80) (الحديث رقم: 3502)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (الحديث رقم: 404) والحاكم في المستدرك 1/528.

(3) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحجر (الحديث رقم: 3122)، والنسائي في كتاب: الإمامة، باب المنفرد خلف الصف، (الحديث رقم: 870).

قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾.

﴿رجيم﴾ شيطان من الذين يرجمون بالشهب، أو مطرود من رحمة الله؛ لأن من يطرد يرجم بالحجارة، ومعناه: ملعون؛ لأن اللعن هو الطرد من الرحمة والإبعاد منها. والضمير في منها راجع إلى الجنة، أو السماء، أو إلى جملة الملائكة. وضرب يوم الدين حدًا للعنة إما لأنه غاية يضربها الناس في كلامهم كقوله: **﴿ما دامت السمٰوات والأرض﴾**[1] في التأييد، وإما أن يراد أنك مذموم مدعو عليك باللعن في السمٰوات والأرض إلى يوم الدين من غير أن يعذب، فإذا جاء ذلك اليوم عذبت بما ينسى اللعن معه. ويوم الدين، ويوم يبعثون، ويوم الوقت المعلوم في معنى واحد، ولكن خولف بين العبارات سلوكًا بالكلام طريقة البلاغة. وقيل: إنما سأل الإنظار إلى اليوم الذي فيه يبعثون لئلا يموت؛ لأنه لا يموت يوم البعث أحد، فلم يجب إلى ذلك وأنظر إلى آخر أيام التكليف.

قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾.

﴿بما اغويتني﴾ الباء للقسم وما مصدرية وجواب القسم **﴿لأزينن﴾** المعنى: أقسم بإغوائك إياي لأزينن لهم، ومعنى إغوائه إياه: تسببه لغيه بأن أمره بالسجود لآدم عليه السلام فأفضى ذلك إلى غيه، وما الأمر بالسجود إلا حسن وتعريض للثواب بالتواضع والخضوع لأمر الله، ولكن إبليس اختار الإباء والاستكبار فهلك، والله تعالى بريء من غيه ومن إرادته والرضا به ونحو قوله: **﴿بما اغويتني لأزينن﴾ ﴿لهم﴾** قوله: **﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين﴾**[2] في أنه إقسام إلا أن أحدهما: إقسام بصفته والثاني: إقسام بفعله، وقد فرق الفقهاء بينهما، ويجوز أن لا يكون قسمًا يقدر قسم محذوف ويكون المعنى: بسبب تسببك لإغوائي أقسم لأفعلنّ بهم نحو ما فعلت بي من التسبيب لإغوائهم بأن أزين لهم المعاصي، وأوسوس إليهم ما يكون سبب هلاكهم **﴿في الأرض﴾** في الدنيا التي هي دار الغرور كقوله تعالى: **﴿أخلد إلى الأرض واتبع هواه﴾**[3] وأراد أني أقدر على الاحتيال لآدم والتزيين له الأكل من الشجرة وهو في السماء، فأنا عليّ التزيين لأولاده في الأرض أقدر، أو أراد لأجعلنّ مكان التزيين عندهم الأرض، ولأقعن تزييني فيها، أي لأزيننها في أعينهم، ولأحدّثنهم بأنّ الزينة في الدنيا وحدها حتى يستحبوها على الآخرة ويطمئنوا إليها دونها، ونحوه: يجرح في عراقيبها نصلي، استثنى المخلصين؛ لأنه علم أنّ كيده لا يعلم فيهم ولا يقبلون منه. أي **﴿هذا﴾** طريق حق **﴿علي﴾** أن أراعيه وهو أن لا يكون لك سلطان على عبادي إلا من اختار اتباعك منهم لغوايته، وقرئ*: عليّ، وهو: من علو الشرف والفضل.

وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾.

﴿لموعدهم﴾ الضمير للغاوين، وقيل: أبواب النار أطباقها وأدراكها، فأعلاها للموحدين، والثاني لليهود، والثالث للنصارى، والرابع للصابئين والخامس للمجوس، والسادس للمشركين، والسابع للمنافقين. وعن ابن عباس رضي الله عنه: إن جهنم لمن ادعى الربوبية، ولظى لعبدة النار، والحطمة لعبدة الأصنام، وسقر لليهود، والسعير للنصارى، والجحيم للصابئين، والهاوية للموحدين. وقرئ*: جزء بالتخفيف والتثقيل، وقرأ الزهري: جزّ بالتشديد كأنه حذف الهمزة وألقى حركتها على الزاي، كقولك: خب في خبء، ثم وقف عليه بالتشديد كقولهم: الرجل، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف.

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾.

المتقي على الإطلاق من يتقي ما يجب اتقاؤه مما نهي عنه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: اتقوا الكفر والفواحش، ولهم ذنوب تكفرها الصلوات وغيرها **﴿ادخلوها﴾** على إرادة القول، وقرأ الحسن: ادخلوها **﴿بسلام﴾** سالمين أو مسلمًا عليكم، تسلم عليكم الملائكة. الغل الحقد الكامن في القلب من أنغل في جوفه وتغلغل أي: إن كان لأحدهم في الدنيا غلّ على آخر، نزع الله ذلك من قلوبهم وطيب نفوسهم، وعن علي رضي الله عنه: أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم، وعن الحرث الأعور: كنت جالسًا عنده إذ جاء ابن طلحة فقال له عليّ: مرحبًا بك يا ابن أخي أما والله إني لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله تعالى: **﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾** فقال له قائل: كلا الله أعدل من أن يجمعك وطلحة في مكان واحد، فقال: فلمن هذه الآية لا أمّ لك، وقيل معناه: طهر الله قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات في الجنة، ونزع منها كل غلّ، وألقى فيها التوادّ والتحاب و**﴿إخوانًا﴾** نصب على الحال و **﴿على سرر متقابلين﴾** كذلك، وعن مجاهد: تدور بهم الأسرة حيثما داروا فيكونون في جميع أحوالهم متقابلين.

(1) سورة هود، الآيتان: 107، 108.
(2) سورة صٓ، الآية: 82.
(3) سورة الأعراف، الآية: 176.

﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾.

لما أتم ذكر الوعد والوعيد اتبعه **﴿نبئ عبادي﴾** تقرير لما ذكر وتمكينًا له في النفوس. وعن ابن عباس رضي الله عنه: غفور لمن تاب وعذابه لمن لم يتب وعطف **﴿ونبئهم﴾** على **﴿نبئ عبادي﴾** ليتخذوا ما أحل من العذاب بقوم لوط عبرة يعتبرون بها سخط الله وانتقامه من المجرمين، ويتحققوا عنده أنّ عذابه هو العذاب الأليم.

إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾.

﴿سلامًا﴾ أي: نسلم عليك سلامًا، أو سلمت سلامًا **﴿وجلون﴾** خائفون، وكان خوفه لامتناعهم من الأكل، وقيل: لأنهم دخلوا بغير إذن وبغير وقت. وقرأ الحسن: لا توجل بضم التاء من أوجله يوجله إذا أخافه، وقرئ*: لا تأجل، ولا تواجل من واجله بمعنى: أوجله.

قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾.

وقرئ*: نبشرك بفتح النون والتخفيف **﴿إنا نبشرك﴾** استئناف في معنى التعليل للنهي عن الوجل، أرادوا أنك بمثابة الآمن المبشر فلا توجل. يعني **﴿أبشرتموني﴾** مع مس الكبر بأن يولد لي، أي: أن الولادة أمر عجيب مستنكر في العادة مع الكبر **﴿فبم تبشرون﴾** هي: ما الاستفهامية دخلها معنى التعجب كأنه قال: فبأي أعجوبة تبشروني! أو أراد أنكم تبشرونني بما هو غير متصوّر في العادة فبأي شيء تبشرون يعني: لا تبشرونني في الحقيقة بشيء؛ لأنّ البشارة بمثل هذا بشارة بغير شيء، ويجوز أن لا يكون صلة لبشر، ويكون سؤالاً عن الوجه والطريقة يعني: بأي طريقة تبشرونني بالولد والبشارة به لا طريقة لها في العادة.

وقوله: **﴿بشرناك بالحق﴾** يحتمل أن تكون الباء فيه صلة أي: بشرناك باليقين الذي لا لبس فيه، أو بشرناك بطريقة هي حق وهو: قول الله، ووعده، وأنه قادر على أن يوجد ولدًا من غير أبوين، فكيف من شيخ فان وعجوز عاقر؟ وقرئ*: تبشرون بفتح النون وبكسرها على حذف نون الجمع، والأصل تبشرون وتبشرون بإدغام نون الجمع في نون العماد. وقرئ*: من القنطين من قنط يقنط. وقرئ*: ومن يقنط بالحركات الثلاث في النون، أراد: ومن يقنط من رحمة ربه إلا المخطؤن طريق الصواب، أو إلا الكافرون كقوله: **﴿لا ييئس من روح الله إلاّ القوم الكافرون﴾**[1] يعني: لم أستنكر ذلك قنوطًا من رحمته ولكن استبعادًا له في العادة التي أجراها الله.

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾.

فإن قُلْتَ[2]: قوله تعالى: **﴿إلا آل لوط﴾** استثناء متصل أم منقطع؟ **قُلْتُ**: لا يخلو من أن يكون استثناء من قوم فيكون منقطعًا؛ لأنّ القوم موصوفون بالإجرام فاختلف لذلك الجنسان، وأن يكون استثناء من الضمير في مجرمين فيكون متصلاً كأنه قيل: إلى قوم قد أجرموا كلهم إلا آل لوط وحدهم كما قال: **﴿فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾**[3].

فإن قُلْتَ: فهل يختلف المعنى لاختلاف الاستثناءين؟ **قُلْتُ**: نعم وذلك أنّ آل لوط مخرجون في المنقطع من حكم الإرسال، وعلى أنهم أرسلوا إلى القوم المجرمين خاصة ولم يرسلوا إلى آل لوط أصلاً، ومعنى إرسالهم إلى القوم المجرمين كإرسال الحجر أو السهم إلى المرمى في أنه في معنى التعذيب والإهلاك كأنه قيل: إنا أهلكنا قومًا مجرمين، ولكن آل لوط أنجيناهم، وأمّا في المتصل: فهم داخلون في حكم الإرسال، وعلى أنّ الملائكة أرسلوا إليهم جميعًا ليهلكوا هؤلاء وينجوا هؤلاء، فلا يكون الإرسال مخلصًا بمعنى الإهلاك والتعذيب كما في الوجه الأوّل.

فإن قُلْتَ: فقوله: **﴿إنا لمنجوهم﴾** بم يتعلق على الوجهين **قُلْتُ**: إذا انقطع الاستثناء جرى مجرى خبر لكن في الاتصال بآل لوط؛ لأنّ المعنى لكن آل لوط منجون، وإذا اتصل كان كلامًا مستأنفًا، كأنّ إبراهيم عليه السلام قال لهم: فما حال آل لوط؟ فقالوا: إنا لمنجوهم.

إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾.

فإن قُلْتَ: فقوله: **﴿إلا امرأته﴾** ممّ استثني؟ وهل هو استثناء من استثناء؟ **قُلْتُ**: استثنى من الضمير المجرور في قوله: لمنجوهم، وليس من الاستثناء من الاستثناء في شيء؛ لأنّ الاستثناء من الاستثناء إنما يكون فيما اتحد الحكم فيه وأن يقال: أهلكناهم إلا آل لوط إلا امرأته، كما اتحد الحكم في قول المطلق: أنت طالق ثلاثًا إلا اثنين إلا واحدة، وفي قول المقر لفلان: عليّ عشرة دراهم إلا ثلاثة إلا درهمًا، فأمّا في الآية فقد اختلف الحكمان؛ لأنّ إلا آل لوط متعلق بأرسلنا أو بمجرمين، وإلا امرأته قد تعلق بمنجوهم، فأنى يكون

---

(1) سورة يوسف، الآية: 87.

(2) قال أحمد: وجعله الأوّل منقطعاً أولى وأمكن، وذلك أنّ في استثنائهم من الضمير العائد على قوم منكرين بعداً، من حيث أنّ موقع الاستثناء إخراج ما لولاه، لدخل المستثنى في حكم الأوّل، وهذا الدخول متعذر من التنكير، ولذلك قلما تجد النكرة يستثنى= منها، إلا في سياق نفي؛ لأنها حينئذ أعم، فيتحقق الدخول لولا الاستثناء، ومن ثم لم يحسن رأيت قوماً إلا زيداً، وحسن ما رأيت أحد إلا زيداً، والله أعلم.

(3) سورة الذاريات، الآية: 36.

استثناء من استثناء؛ وقرئ: لمنجوهم بالتخفيف والتثقيل.

فإن قُلْتَ[1]: لمَ جاز تعليق فعل التقدير في قوله: **﴿قدّرنا إنها لمن الغابرين﴾** والتعليق من خصائص أفعال القلوب؟ **قُلْتُ**: لتضمن فعل التقدير معنى العلم، ولذلك فسر العلماء تقدير الله أعمال العباد بالعلم.

فإن قُلْتَ: فلم أسند الملائكة فعل التقدير وهو لله وحده إلى أنفسهم ولم يقولوا قدّر الله؟ **قُلْتُ**: لما لهم من القرب والاختصاص بالله الذي ليس لأحد غيرهم، كما يقول خاصة الملك: دبرنا كذا وأمرنا بكذا، والمدبر والآمر هو الملك لا هم، وإنما يظهرون بذلك اختصاصهم، وأنهم لا يتميزون عنه، وقرئ: قدرنا بالتخفيف.

فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾.

﴿منكرون﴾ أي: تنكركم نفسي وتنفر منكم، فأخاف أن تطرقوني بشر بدليل قوله: **﴿بل جئناك بما كانوا فيه يمترون﴾** أي: ما جئناك بما تنكرنا لأجله بل جئناك بما فيه فرحك وسرورك وتشفيك من عدوّك، وهو: العذاب الذي كنت تتوعدهم بنزوله فيمترون فيه ويكذبونك.

وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾.

﴿بالحق﴾ باليقين من عذابهم **﴿وإنا لصادقون﴾** في الإخبار بنزوله بهم. وقرئ: فاسر بقطع الهمزة ووصلها من أسرى وسرى، وروي صاحب الإقليد: فسر من السير. والقطع في آخر الليل قال:

افتحي الباب وانظري في النجوم كم علينا من قطع ليل بهيم

وقيل: هو بعدما يمضي شيء صالح من الليل.

فإن قُلْتَ: ما معنى أمره باتباع أدبارهم[2] ونهيهم عن الالتفات؟ **قُلْتُ**: قد بعث الله الهلاك على قومه ونجاه وأهله إجابة لدعوته عليهم، وخرج مهاجرًا فلم يكن له بدّ من الاجتهاد في شكر الله وإدامة ذكره وتفريغ باله لذلك، فأمر بأن يقدمهم لئلا يشتغل بمن خلفه قلبه، وليكون مطلعًا عليهم وعلى أحوالهم، فلا تفرط منهم التفاتة احتشامًا منه ولا غيرها من الهفوات في تلك الحال المهولة المحذورة، ولئلا يتخلف منهم أحد لغرض له فيصيبه العذاب، وليكون مسيره مسير الهارب الذي يقدم سربه ويفوت به[3]، ونهوا عن الالتفات لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم، وليوطنوا نفوسهم على المهاجرة، ويطيبوها عن مساكنهم، ويمضوا قدمًا غير ملتفتين إلى ما وراءهم كالذي يتحسر على مفارقة وطنه فلا يزال يلوي إليه أخادعه كما قال:

تلفت نحو الحي حتى وجدتني وجعت من الإصغاء ليتًا وأخدعا

أو جعل النهي عن الالتفات كناية عن مواصلة السير وترك التواني والتوقف؛ لأنّ من يتلفت لا بدّ له في ذلك من أدنى وقفة **﴿حيث تؤمرون﴾** قيل: هو مصر، وعدي، وامضوا إلى حيث، تعديته إلى الظرف المبهم؛ لأن حيث مبهم في الأمكنة، وكذلك الضمير في تؤمرون وعدي قضينا بإلى؛ لأنه ضمن معنى أوحينا كأنه قيل: وأوحينا إليه مقضيًا مبتوتًا وفسر **﴿ذلك الأمر﴾** بقوله: **﴿أن دابر هؤلاء مقطوع﴾** وفي إبهامه وتفسيره تفخيم للأمر وتعظيم له، وقرأ الأعمش: إن بالكسر على الاستئناف كأن قائلاً قال: أخبرنا عن ذلك الأمر؟ فقال: إنّ دابر هؤلاء، وفي قراءة ابن مسعود: وقلنا إنّ دابر هؤلاء ودابرهم آخرهم يعني: يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد.

وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾.

﴿أهل المدينة﴾ أهل سدوم التي ضرب بقاضيها المثل في الجور مستبشرين بالملائكة **﴿لا تفضحون﴾** بفضيحة ضيفي؛ لأنّ من أسيء إلى ضيفه أو جاره فقد أسيء إليه، كما أن من أكرم من يتصل به فقد أكرم **﴿ولا تخزون﴾** ولا تذلون بإذلال ضيفي من الخزي وهو: الهوان، أو ولا

---

(1) قال أحمد: وهذه أيضاً من دفائنه الاعتزالية في جحد القضاء والقدر، واعتقاد أنّ الأمر أنف؛ لأنهم لا يعتقدون أنّ الله تعالى مريد لأكثر أفعال عبيده، من معصية ومباح ونحوهما، ولا مقدّر لها على العبيد بمعنى أنه مريد، ولكنه عالم بما سيفعلونه على خلاف مشيئته وإرادته، فالتقدير عندهم هو العلم لا الإرادة، ثم استدلّ على أنّ التقدير هو العلم، بتعليق فعله على العلم، وذلك من خواص فعل العلم وأخواته، فانظر إلى بعد غوره، ودقة فطنته في ابتغاء السنة يلفقها ويعاند بها البراهين الواضح فلقها، وفي كلامه شاهد على ردّه، فإنّ التقدير عنده مضمن معنى العلم، ومن شأن الفعل المضمن معنى آخر، أن يبقى على معناه الأصلي مضافاً إليه المعنى الطارئ، فيفيدها جميعاً، فالتقدير إذاً كما أفاد العلم الطارئ، يفيد الإرادة أصلاً ووضعاً، والله أعلم على أنّ من الناس من جعل قوله تعالى: ﴿قدّرنا أنها من الغابرين﴾ من كلامه تعالى = غير محكى عن الملائكة، وهو الظاهر، فإن الذي يجعله من قول الملائكة، يحتاج في نسبتهم التقدير إلى أنفسهم إلى تأويل، ويجعله من باب قول خواص الملك دبرنا كذا، وإنما يعنون دبر الملك وأمر وبذلك أوّله الزمخشري، وإن كان أصله لا يحتاج معه إلى التأويل؛ لأنه إذا جعل ﴿قدّرنا﴾ بمعنى علمنا ﴿إنها لمن الغابرين﴾ فلا غرور في علم الملائكة، والله أعلم.

(2) قال أحمد: ولبعض هذه المقاصد عاتب الله تعالى نبيه موسى عليه السلام، حيث تقدّم قومه، فقال: ﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى﴾ والله أعلم.

(3) قال أحمد: ولقد شملت هذه الآية على وجازتها، آداب المسافرين لمهم ديني أو دنيوي من الآمر والمأمور، والتابع والمتبوع، ما فرطنا في الكتاب من شيء.

تشوروا بي من الخزاية وهي الحياء ﴿عن العالمين﴾ عن أن تجير منهم أحدًا أو تدفع عنهم أو تمنع بيننا وبينهم، فإنهم كانوا يتعرّضون لكل أحد، وكان يقوم ﷺ بالنهي عن المنكر، والحجر بينهم وبين المتعرّض له فأوعدوه وقالوا: ﴿لئن لم تنته يا لوط لتكوننّ من المخرجين﴾[1] وقيل: عن ضيافة الناس وإنزالهم، وكانوا نهوه أن يضيف أحدًا قط ﴿هؤلاء بناتي﴾ إشارة إلى النساء؛ لأنّ كل أمّة أولاد نبيها رجالهم بنوه ونساؤهم بناته فكأنه قال لهم: هؤلاء بناتي فانكحوهنّ وخلو ابنيّ فلا تتعرّضوا لهم ﴿إن كنتم فاعلين﴾ شك في قبولهم لقوله كأنه قال: إن فعلتم ما أقول لكم وما أظنكم تفعلون، وقيل: إن كنتم تريدون قضاء الشهوة فيما أحل الله دون ما حرّم.

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾.

﴿لعمرك﴾ على إرادة القول أي: قالت الملائكة للوط عليه السلام لعمرك ﴿إنهم لفي سكرتهم﴾ أي: غوايتهم التي أذهبت عقولهم، وتمييزهم بين الخطأ الذي هم عليه وبين الصواب الذي تشير به عليهم من ترك البنين إلى البنات ﴿يعمهون﴾ يتحيرون، فكيف يقبلون قولك ويصغون إلى نصيحتك، وقيل: الخطاب لرسول الله ﷺ وأنه أقسم بحياته وما أقسم بحياة أحد قط كرامة له، والعمر والعمر واحد إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح لإيثار الأخف فيه، وذلك لأن الحلف كثير الدور على السنتهم ولذلك حذفوا الخبر، وتقديره لعمرك مما أقسم به، كما حذفوا الفعل في قولك: بالله، وقرئ: في سكرهم وفي سكراتهم.

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾.

﴿الصيحة﴾ صيحة جبريل عليه السلام ﴿مشرقين﴾ داخلين في الشروق وهو بزوغ الشمس ﴿من سجيل﴾ قيل: من طين عليه كتاب من السجل ودليله قوله تعالى: ﴿حجارة من طين * مسوّمة عند ربك﴾[2] أي: معلمة بكتاب ﴿للمتوسمين﴾ للمتفرّسين المتأمّلين، وحقيقة المتوسمين النظار المتثبتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة سمة الشيء يقال: توسمت في فلان كذا أي: عرفت وسمه فيه. والضمير في ﴿عاليها سافلها﴾ لقرى قوم لوط ﴿وإنها﴾ وإنّ هذه القرى يعني: آثارها ﴿لبسبيل مقيم﴾ ثابت يسلكه الناس لم يندرس بعدوهم يبصرون تلك الآثار، وهو تنبيه لقريش كقوله: ﴿وإنكم لتمرّون عليهم مصبحين﴾[3].

وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾.

﴿أصحاب الأيكة﴾ قوم شعيب ﴿وإنهما﴾ يعني: قرى قوم لوط والأيكة، وقيل: الضمير للأيكة، ومدين؛ لأنّ شعيبًا كان مبعوثًا إليهما، فلما ذكر الأيكة دل بذكرها على مدين فجاء بضميرهما ﴿لبإمام مبين﴾ لبطريق واضح، والإمام اسم لما يؤتم به فسمي به الطريق، ومطمر البناء، واللوح الذي يكتب فيه؛ لأنها مما يؤتم به.

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾.

﴿أصحاب الحجر﴾ ثمود والحجر واديهم، وهو بين المدينة والشام ﴿المرسلين﴾ يعني: بتكذيبهم صالحًا؛ لأنّ من كذب واحدًا منهم فكأنما كذبهم جميعًا، أو أراد صالحًا ومن معه من المؤمنين كما قيل: الخبيبون في ابن الزبير وأصحابه، وعن جابر: مررنا مع النبي ﷺ على الحجر فقال لنا: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذرًا أن يصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء، ثم زجر النبي ﷺ راحلته فأسرع حتى خلفها»[4]. ﴿آمنين﴾ لوثاقة البيوت واستحكامها من أن تنهدم ويتداعى بنيانها، ومن نقب اللصوص، ومن الأعداء، وحوادث الدهر، أو آمنين من عذاب الله يحسبون أنّ الجبال تحميهم منه ﴿ما كانوا يكسبون﴾ من بناء البيوت الوثيقة والأموال والعدد.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾.

﴿إلا بالحق﴾ إلا خلقًا ملتبسًا بالحق والحكمة لا باطلاً وعبثًا، أو بسبب العدل والإنصاف يوم الجزاء على الأعمال ﴿وإنّ الساعة لآتية﴾ وإنّ الله ينتقم لك فيها من أعدائك ويجازيك وإياهم على حسناتك وسيآتهم، فإنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا لذلك ﴿فاصفح﴾ فأعرض عنهم واحتمل ما تلقى منهم إعراضًا جميلاً بحلم وإغضاء، وقيل: هو منسوخ بآية السيف، ويجوز أن يراد به المخالفة فلا يكون منسوخًا.

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾.

﴿إنّ ربك هو الخلاق﴾ الذي خلقك وخلقهم وهو ﴿العليم﴾ بحالك وحالهم، فلا يخفى عليه ما يجري بينكم، وهو يحكم بينكم، أو إنّ ربك هو الذي خلقكم وعلم ما هو الأصلح لكم، وقد علم أنّ الصفح اليوم أصلح إلى أن يكون السيف أصلح، وفي مصحف أبيّ، وعثمان: إنّ ربك هو

(1) سورة الشعراء، الآية: 167.

(2) سورة الذاريات، الآيتان: 33 ـ 34.

(3) سورة الصافات، الآية: 137.

(4) رواه البخاري في كتاب: المغازي، باب: نزول النبي ﷺ الحجر (الحديث رقم: 4419).

الخالق، وهو يصلح للقليل والكثير، والخلاق للكثير لا غير، كقولك: قطع الثياب وقطع الثوب والثياب.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾.

﴿سبعًا﴾ سبع آيات وهي: الفاتحة، أو سبع سور وهي: الطوال، واختلف في السابعة فقيل: الأنفال وبراءة؛ لأنهما في حكم سورة واحدة ولذلك لم يفصل بينهما بآية التسمية، وقيل: سورة يونس، وقيل: هي: آل حم، أو سبع صحائف وهي: الأسباع و **﴿المثاني﴾** من التثنية وهي التكرير؛ لأنّ الفاتحة مما تكرر قراءتها في الصلاة وغيرها، أو من الثناء لاشتمالها أعلى ما هو ثناء على الله، الواحدة مثناة أو مثنية صفة للآية، وأمّا السور أو الأسباع: فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك، ولما فيها من الثناء كأنها تثني على الله تعالى بأفعاله العظمى، وصفاته الحسنى، و **﴿من﴾** إمّا: للبيان، أو للتبعيض: إذا أردت بالسبع الفاتحة أو الطوال، وللبيان: إذا أردت الأسباع، ويجوز أن يكون كتب الله كلها مثاني لأنها تثنى عليه، ولما فيها من المواعظ المكررة ويكون القرآن بعضها.

فإن قُلْتَ: كيف صحّ عطف **﴿القرآن العظيم﴾** على السبع، وهل هو إلا عطف الشيء على نفسه؟ **قُلْتُ:** إذا عني بالسبع الفاتحة أو الطوال فما وراءهنّ ينطلق عليه اسم القرآن؛ لأنه اسم يقع على البعض كما يقع على الكل ألا ترى إلى قوله: **﴿بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾**[1] يعني: سورة يوسف، وإذا عنيت الأسباع فالمعنى: ولقد آتيناك ما يقال له: السبع المثاني، والقرآن العظيم، أي: الجامع لهذين النعتين وهو: الثناء، أو التثنية، والعظم. أي: لا تطمح ببصرك طموح راغب فيه متمن له.

لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾.

﴿إلى ما متعنا به أزواجًا منهم﴾ أصنافًا من الكفار.

فإن قُلْتَ[2]: كيف وصل هذا بما قبله؟ **قُلْتُ:** يقول لرسوله ﷺ قد أوتيت النعمة العظمى التي كل نعمة وإن عظمت فهي إليها حقيرة ضئيلة وهي: القرآن العظيم، فعليك أن تستغني به، ولا تمدنّ عينيك إلى متاع الدنيا، ومنه الحديث: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[3]. وحديث أبي بكر: من أوتي القرآن فرأى أن أحدًا أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي فقد صغر عظيمًا وعظم صغيرًا[4]. وقيل: وافت من بصرى وأذرعات سبع قوافل ليهود بني قريظة والنضير، فيها أنواع البز والطيب والجوهر وسائر الأمتعة، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها، ولأنفقناها في سبيل الله، فقال لهم الله عز وعلا: لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه القوافل السبع **﴿ولا تحزن عليهم﴾** أي: لا تتمن أموالهم ولا تحزن عليهم إنهم لم يؤمنوا فيتقوى بمكانهم الإسلام وينتعش بهم المؤمنون. وتواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وضعفائهم، وطب نفسًا عن إيمان الأغنياء والأقوياء.

وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾.

﴿وقل﴾ لهم **﴿إني أنا النذير المبين﴾** أنذركم ببيان وبرهان: أنّ عذاب الله نازل بكم.

فإن قُلْتَ: بم تعلق قوله: **﴿كما أنزلنا﴾؟ قُلْتُ:** فيه وجهان: أحدهما: أن يتعلق بقوله: **﴿ولقد آتيناك﴾**[5] أي: أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب وهم المقتسمون **﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾** حيث قالوا بعنادهم وعدوانهم: بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل، وبعضه باطل مخالف لهما، فاقتسموه إلى حق وباطل وعضوه. وقيل: كانوا يستهزؤن به فيقول بعضهم: سورة البقرة لي، ويقول الآخر: سورة آل عمران لي، ويجوز أن يراد بالقرآن ما يقرؤنه من كتبهم، وقد اقتسموه بتحريفهم، وبأنّ اليهود أقرت ببعض التوراة وكذبت ببعض، والنصارى أقرّت ببعض الإنجيل وكذبت ببعض، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم وقولهم: سحر وشعر وأساطير بأن غيرهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب نحو فعلهم والثاني: أن يتعلق بقوله: **﴿وقل إني أنا النذير المبين﴾** أي: وأنذر قريشًا مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين يعني اليهود وهو: ما جرى على قريظة والنضير، جعل المتوقع بمنزلة الواقع وهو: من الإعجاز؛ لأنه إخبار بما سيكون وقد كان، ويجوز أن يكون الذين جعلوا القرآن عضين منصوبًا بالنذير أي: أنذر المعضين الذين يجزؤن القرآن إلى سحر وشعر وأساطير مثل ما أنزلنا على المقتسمين وهم: الاثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم، فقعدوا في كل مدخل متفرقين لينفروا الناس عن الإيمان برسول الله ﷺ،

---

(1) سورة يوسف، الآية: 3.

(2) قال أحمد: وهذا هو الصواب في معنى الحديث، وقد حمله كثير من العلماء على الغناء، وادعى هؤلاء أن تغنى إنما يبنى من الغناء الممدود، لا من الغنى المقصور، وإنّ فعله استغنى خاصة، وقد وجدت بناء تغني من الغني المقصور في الحديث الصحيح في الخيل، وأمّا التي هي ستر، فرجل ربطها تغنياً وتعففاً، وإنما هذا من الغنى المقصور قطعاً واتفاقاً، وهو مصدر تغني، فدلّ على ذلك على أنه مستعمل من البناءين جميعاً، على خلاف دعوى المخالف، = والله الموفق.

(3) رواه البخاري في كتاب: «التوحيد» باب: قول الله تعالى: «واسروات قولكم» (الحديث رقم: 7527).

(4) قال الزيلعي: غريب من حديث أبي بكر، ورواه إسحاق بن راهويه عن عبد الله بن عمرو بن العاص وابن عدي في الكامل عن ابن مسعود 2/218.

(5) سورة الحجر، الآية: 87.

يقول بعضهم: لا تغتروا بالخارج منا فإنه ساحر، ويقول الآخر: كذاب، والآخر: شاعر، فأهلكهم الله يوم بدر، وقبله بآفات كالوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وغيرهم، أو مثل ما أنزلنا إلى الرهط الذين تقاسموا على أن يبيّتوا صالحًا عليه السلام، والاقتسام بمعنى: التقاسم.

فإن قُلْتَ: إذا علقت قوله: **﴿كما أنزلنا﴾** بقوله: **﴿ولقد آتيناك﴾**[1] فما معنى توسط **﴿لا تمدن﴾**[2] إلى آخره بينهما؟ **قُلْتُ:** لما كان ذلك تسلية لرسول الله ﷺ عن تكذيبهم وعداوتهم اعترض بما هو مدد لمعنى التسلية، من النهي عن الالتفات إلى دنياهم والتأسف على كفرهم، ومن الأمر بأن يقبل بمجامعه على المؤمنين. عضين: أجزاء جمع عضة وأصلها عضوة فعلة من عضى الشاة إذا جعلها أعضاء. قال رؤبة:

وليس دين الله بالمعضى

وقيل: هي فعلة من غضهته إذا بهته، وعن عكرمة: العضة السحر بلغة قريش يقولون للساحر: عاضهة، ولعن النبي ﷺ: «العاضهة والمستعضهة»[3] نقصانها عن الأوّل واو وعلى الثاني هاء.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾.

﴿لنسئلنهم﴾ عبارة عن الوعيد، وقيل: يسألهم سؤال تقريع، وعن أبي العالية: يسأل العباد عن خلتين، عما كانوا يعبدون، وماذا أجابوا المرسلين.

فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾.

﴿فاصدع بما تؤمر﴾ فاجهر به وأظهره، يقال: صدع بالحجة إذا تكلم بها جهارًا كقولك: صرح بها من الصديع وهو: الفجر، والصدع في الزجاجة الإبانة، وقيل: فاصدع فافرق بين الحق والباطل بما تؤمر والمعنى: بما تؤمر به من الشرائع فحذف الجار كقوله:

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به

ويجوز أن تكون ما مصدرية أي: بأمرك مصدر من المبني للمفعول.

إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾.

عن عروة بن الزبير في المستهزئين: هم خمسة نفر ذوو أسنان، وشرف الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب، والحرث بن الطلاطلة. وعن ابن عباس رضي الله عنه: ماتوا كلهم قبل بدر، قال جبريل عليه السلام للنبي ﷺ: أمرت أن أكفيكهم، فأومأ إلى ساق الوليد فمرّ بنبال فتعلق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظمًا لأخذه، فأصاب عرقًا في عقبة فقطعه فمات، وأومأ إلى أخمص العاص بن وائل فدخلت فيها شوكة فقال: لدغت لدغت وانتفخت رجله حتى صارت كالرحى ومات، وأشار إلى عيني الأسود بن المطلب فعمي، وأشار إلى أنف الحرث بن قيس فامتخط قيحًا فمات، وإلى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات[4].

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾.

﴿بما يقولون﴾ من أقاويل الطاعنين فيك وفي القرآن **﴿فسبح﴾** فافزع فيما نابك إلى الله، والفزع إلى الله هو: الذكر الدائم وكثرة السجود، يكفك ويكشف عنك الغم. ودم على عبادة ربك **﴿حتى ياتيك اليقين﴾** أي: الموت أي: ما دمت حيًا فلا تخل بالعبادة، وعن النبي ﷺ أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[5].

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الحجر كان له من الأجر عشر حسنات، بعدد المهاجرين والأنصار والمستهزئين بمحمد ﷺ»[6].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة النحل مكية

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾.

كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة أو نزول العذاب بهم يوم بدر استهزاء وتكذيبًا بالوعد فقيل لهم: **﴿أتى أمر الله﴾** الذي هو بمنزلة الآتي الواقع وإن كان منتظرًا لقرب وقوعه **﴿فلا تستعجلوه﴾** روي: أنه لما نزلت اقتربت الساعة قال الكفار فيما بينهم: إن هذا يزعم أنّ القيامة قد قربت، فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن. فلما تأخرت قالوا: ما نرى شيئًا. فنزلت: **﴿اقترب للناس حسابهم﴾**[7] فأشفقوا وانتظروا قربها فلما امتدت الأيام قالوا: يا محمد ما نرى شيئًا مما تخوّفنا به. فنزلت: **﴿أتى أمر الله﴾** فوثب رسول الله ﷺ، ورفع الناس رؤوسهم، فنزلت: **﴿فلا تستعجلوه﴾** فاطمأنوا، وقرئ: تستعجلوه بالتاء والياء **﴿سبحانه وتعالى عما**

---

(1) سورة الحجر، الآية: 87.

(2) سورة الحجر، الآية: 88.

(3) رواه عبد الرزاق في مصنفه 3/141 (الحديث رقم: 5090).

(4) رواه الطبراني في معجمه.

(5) رواه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: «وقت قيام النبي ﷺ من الليل» (الحديث رقم: 1319).

(6) ذكره الثعلبي والواحدي في تفسيره وابن مردويه الزيلعي 2/221.

(7) سورة الأنبياء، الآية: 1.

يشركون﴾ تبرأ عز وجلّ عن أن يكون له شريك وأن تكون آلهتهم له شركاء، أو عن إشراكهم، على أنّ ما موصولة أو مصدرية.

فإن قُلْتَ: كيف اتصل هذا باستعجالهم؟ قُلْتُ: لأنّ استعجالهم استهزاء وتكذيب وذلك من الشرك، وقرئ: تشركون بالتاء والياء.

﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾.

قرئ: ينزل بالتخفيف والتشديد وقرئ: تنزل الملائكة أي: تتنزل ﴿بالروح من أمره﴾ بما يحيي القلوب الميتة بالجهل من وحيه، أو بما يقوم في الدين مقام الروح في الجسد و ﴿أن أنذروا﴾ بدل من الروح أي: ينزلهم بأن أنذروا، وتقديره بأنه أنذروا أي: بأنّ الشأن أقول لكم: أنذروا. أو تكون أن مفسرة لأنّ تنزيل الملائكة بالوحي فيه معنى القول ومعنى ﴿أنذروا أنه لا إلٰه إلا أنا﴾ أعلموا بأنّ الأمر ذلك من نذرت بكذا إذا علمته، والمعنى: يقول لهم أعلموا الناس قولي ﴿لا إلٰه إلا أنا فاتقون﴾.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾﴾.

ثم دلّ على وحدانيته وأنه لا إلٰه إلا هو بما ذكر مما لا يقدر عليه غيره، من خلق السمٰوات والأرض، وخلق الإنسان وما يصلحه، وما لا بدّ له منه من خلق البهائم لأكله وركوبه وجر أثقاله وسائر حاجاته، وخلق ما لا يعلمون من أصناف خلائقه، ومثله متعال عن أن يشرك به غيره، وقرئ: تشركون بالتاء والياء.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿فإذا هو خصيم مبين﴾ فيه معنيان: أحدهما: فإذا هو منطيق مجادل عن نفسه مكافح للخصوم مبين للحجة، بعد ما كان نطفة من منيّ، جمادًا لا حس به ولا حركة، دلالة على قدرته، والثاني: فإذا هو خصيم لربه منكر على خالقه قائل: ﴿من يحيي العظام وهي رميم﴾[1] وصفًا للإنسان بالإفراط في الوقاحة والجهل والتمادي في كفران النعمة، وقيل: نزلت في أبيّ بن خلف الجمحي حين جاء بالعظم الرميم إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد أترى الله يحيي هذا بعد ما قد رمّ[2].

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿الأنعام﴾ الأزواج الثمانية وأكثر ما تقع على الإبل وانتصابها بمضمر يفسره الظاهر كقوله: ﴿والقمر قدّرناه﴾[3] ويجوز أن يعطف على الإنسان أي: خلق الإنسان والأنعام ثم قال: ﴿خلقها لكم﴾ أي: ما خلقها إلا لكم ولمصالحكم يا جنس الإنسان. والدفء اسم ما يدفأ به كما أنّ الملء اسم ما يملأ به وهو: الدفاء من لباس معمول من صوف أو وبر أو شعر، وقرئ: دف بطرح الهمزة وإلقاء حركتها على الفاء ﴿ومنافع﴾ هي: نسلها ودرّها وغير ذلك.

فإن قُلْتَ: تقديم الظرف في قوله: ﴿ومنها تأكلون﴾ مؤذن بالاختصاص وقد يؤكل من غيرها؟ قُلْتُ[4]: الأكل منها هو الأصل الذي يعتمده الناس في معايشهم، وأما الأكل من غيرها من الدجاج والبط وصيد البر والبحر فكغير المعتدّ به وكالجاري مجرى التفكه، ويحتمل أن طعمتكم منها؛ لأنكم تحرثون بالبقر فالحبّ والثمار التي تأكلونها منها، وتكتسبون بإكراء الإبل وتبيعون نتاجها وألبانها وجلودها.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾.

منّ الله بالتجمل بها كما منّ بالانتفاع بها؛ لأنّه من أغراض أصحاب المواشي بل هو من معاظمها؛ لأنّ الرعيان إذا روّحوها بالعشي وسرحوها بالغداة فزينت بإراحتها وتسريحها الأفنية وتجاوب فيها الثغاء والرغاء أنست أهلها وفرحت أربابها وأجلتهم في عيون الناظرين إليها، وكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس، ونحوه: ﴿لتركبوها وزينة﴾ ﴿يواري سوآتكم وريشًا﴾[5].

فإن قُلْتَ: لم قدمت الإراحة على التسريح قُلْتُ: لأنّ الجمال في الإراحة أظهر إذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها. وقرأ عكرمة: حينًا تريحون وحينًا تسرحون على أن تريحون وتسرحون وصف للحين، والمعنى: تريحون فيه وتسرحون فيه كقوله تعالى: يوم لا يجزى والد.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

قرئ: بشق الأنفس بكسر الشين وفتحها، وقيل: هما لغتان في معنى: المشقة، وبينهما فرق وهو أن المفتوح مصدر شق الأمر عليه شقًا وحقيقته راجعة إلى الشق الذي هو الصدع، وأما الشق: فالنصف كأنه يذهب نصف قوته لما يناله من الجهد.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: ﴿لم تكونوا بالغيه﴾ كأنهم كانوا زمانًا يتحملون المشاق في بلوغه حتى حملت الإبل أثقالهم؟ قُلْتُ: معناه: وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه في التقدير لو لم تخلق الإبل إلا بجهد أنفسكم، لا أنهم لم

(1) سورة يسٓ، الآية: 78.

(2) يأتي في سورة يسٓ.

(3) سورة يسٓ، الآية: 39.

(4) قال أحمد: ومدار هذا التقرير على أنّ تقديم معمول الفعل، يوجب حصره فيه فكأنه قال: وإنما تأكلون منها.

(5) سورة الأعراف، الآية: 26.

يكونوا بالغيه في الحقيقة.

فإن قُلْتَ[1]: كيف طابق قوله: ﴿**لم تكونوا بالغيه**﴾ قوله: ﴿**وتحمل أثقالكم**﴾ وهلا قيل: لم تكونوا حامليها إليه؟ **قُلْتُ**: طباقه من حيث إن معناه: وتحمل أثقالكم إلى بلد بعيد قد علمتم أنكم لا تبلغونه بأنفسكم إلا بجهد ومشقة، فضلاً أن تحملوا على ظهوركم أثقالكم، ويجوز أن يكون المعنى: لم تكونوا بالغيه بها إلا بشق الأنفس، وقيل: أثقالكم أجرامكم، وعن عكرمة: البلد مكة ﴿**لرؤوف رحيم**﴾ حيث رحمكم بخلق هذه الحوامل وتيسير هذه المصالح.

وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾.

﴿**والخيل والبغال والحمير**﴾ عطف على الأنعام أي: وخلق هؤلاء للركوب والزينة وقد احتج على حرمة أكل لحومهن بأن علل خلقها بالركوب والزينة ولم يذكر الأكل بعد ما ذكره في الأنعام.

فإن قُلْتَ: لم انتصب ﴿**وزينة**﴾؟ **قُلْتُ**: لأنه مفعول له وهو معطوف على محل لتركبوها.

فإن قُلْتَ[2]: فهلا ورد المعطوف والمعطوف عليه على سنن واحد؟ **قُلْتُ**: لأنّ الركوب فعل المخاطبين، وأما الزينة ففعل الزائن وهو: الخالق، وقرئ*: لتركبوها زينة بغير واو أي: وخلقها زينة لتركبوها، أو تجعل زينة حالاً منها أي: وخلقها لتركبوها وهي زينة وجمال ﴿**ويخلق ما لا تعلمون**﴾ يجوز أن يريد به ما يخلق فينا ولنا مما لا نعلم كنهه وتفاصيله ويمن علينا بنكره كما منّ بالأشياء المعلومة مع الدلالة على قدرته، ويجوز أن يخبرنا بأن له من الخلائق ما لا علم لنا به ليزيدنا دلالة على اقتداره بالأخبار بذلك، وإن طوى عنا علمه لحكمة له في طيه، وقد حمل على ما خلق في الجنة والنار مما لم يبلغه وهم أحد ولا خطر على قلبه.

وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾.

المراد بالسبيل الجنس ولذلك أضاف إليها القصد وقال: ﴿**ومنها جائر**﴾ والقصد مصدر بمعنى: الفاعل وهو: القاصد، يقال: سبيل قصد وقاصد أي: مستقيم كأنه يقصد الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه، ومعنى قوله: ﴿**وعلى الله قصد السبيل**﴾ أن هداية[3] الطريق الموصل إلى الحق واجبة عليه كقوله: ﴿إن علينا للهدى﴾[4].

فإن قُلْتَ: لم غير أسلوب الكلام في قله: ﴿**ومنها جائر**﴾؟ **قُلْتُ**: ليعلم ما يجوز إضافته إليه من السبيلين وما لا يجوز، ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقيل: وعلى الله قصد السبيل وعليه جائرها، أو وعليه الجائر، وقرأ عبد الله: ومنكم جائر يعني: ومنكم جائر جار عن القصد بسوء اختياره والله بريء منه ﴿**ولو شاء لهداكم أجمعين**﴾ قسرًا وإلجاء ﴿**لكم**﴾ متعلق بأنزل، أو بشراب خبرًا له والشراب ما يشرب ﴿**شجر**﴾ يعني: الشجر الذي ترعاه المواشي، وفي حديث عكرمة: لا تأكلوا ثمن الشجر فإنه سحت[5]، يعني: الكلأ ﴿**تسيمون**﴾ من سامت الماشية إذا راعت فهي سائمة، وأسامها صاحبها وهو من السومة وهي العلامة؛ لأنها تؤثر بالرعي علامات في الأرض.

يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾.

قرئ*: ينبت بالياء والنون.

فإن قُلْتَ: لم قيل: ﴿**ومن كل الثمرات**﴾؟ **قُلْتُ**: لأنّ كل الثمرات لا تكون إلا في الجنة، وإنما أنبت في الأرض بعض من كلها للتذكرة ﴿**يتفكرون**﴾ ينظرون فيستدلون

---

(1) قال أحمد: ويحتمل أن يكون المراد: تحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه بها، إلا بشق الأنفس، واستغنى بذكر البلوغ عن ذكر حملها؛ لأنّ العادة أن المسافر لا يستغنى عن أثقال يستصحبها، والمعنى الأوّل أعلى، والله أعلم.

(2) قال أحمد: يعني: فجاز أن ينصب مجرداً من لام التعليل؛ لأنه فعل فاعل الفعل الأوّل، ويعينه اقتران الركوب باللام؛ لأنه فعل المخاطبين، ومتى لم يتحد الفاعل تعين لحاق اللام، وفي هذا الجواب نظر، فإن لقائل أن يقول كان من الممكن مجيئهما معاً باللام، فيأتيان على سنن واحد، ولا غرو في ذلك، فالسؤال قائم، والجواب العتيد عنه أن المقصود المعتبر الأصلي في هذه الأصناف، هو الركوب، وأما التزين بها، فأمر تابع غير مقصود قصد الركوب، فاقترن المقصود المهم باللام المفيدة، للتعليل تنبيهاً على أنه أهم الغرضين، وأقوى السببين، وتجرّد التزين منها تنبيهاً على تبعيته، أو قصوره عن الركوب، والله أعلم.

(3) قال أحمد: أين يذهب به عن تتمة الآية ونلك. قوله تعالى: ﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ ولو كان الأمر كما تزعم القدرية، لكان الكلام: وقد هداكم أجمعين، وما كانهم إلا يؤمنون ببعض الكتاب، = ويكفرون ببعض، فإن ذهبوا إلى تاويل الهداية بالقسر والإلجاء، فما كانهم إلا يحرفون الكلم من بعد مواضعه، وأما المخالفة بين الأسلوبين، فلأن سياق الكلام لإقامة حجة الله تعالى على الخلق، بانه بين السبيل القاصد والجائر، وهدى قوماً اختاروا الهدى، وأضلّ قوماً اختاروا الضلالة لانفسهم، وقد تقدم في غير ما موضع، أن كل فعل صدر على يد العبد، فله اعتباران هو من حيث كونه موجوداً مخلوق لله تعالى، ومضاف إليه بهذا الاعتبار، وهو من حيث كونه مقترناً باختيار العبد له، وبتاتيه له، وتيسره عليه، يضاف إلى العبد، وأن تعدد هذين الاعتبارين ثابت في كل فعل، فناسب إقامة الحجة على العباد، إضافة الهداية إلى الله تعالى، باعتبار خلقه لها، وإضافة الضلال إلى العبد، باعتبار اختياره له، والحاصل أنه نكر في كل واحد من الفعلين نسبة غير النسبة المذكورة في الآخر، ليناسب نلك إقامة الحجة، الا لله الحجة البالغة، والله الموفق للصواب.

(4) سورة الليل، الآية: 12.

(5) رواه أبو عبيد في كتاب الأموال ص 126 (الحديث رقم: 747).

بها عليه وعلى قدرته وحكمته. والآية الدلالة الواضحة وعن بعضهم: ينبت بالتشديد، وقرأ أبيّ بن كعب: ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب بالرفع.

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾.

قرئت كلها بالنصب على وجعل النجوم مسخرات، أو على أنّ معنى تسخيرها للناس: تصييرها نافعة لهم حيث يسكنون بالليل، ويبتغون من فضله بالنهار، ويعلمون عدد السنين والحساب بمسير الشمس والقمر، ويهتدون بالنجوم، فكأنه قيل: ونفعكم بها في حال كونها مسخرات لما خلقن له بأمره، ويجوز أن يكون المعنى أنه سخرها أنواعًا من التسخير جمع مسخر بمعنى تسخير من قولك: سخره الله مسخرًا كقولك: سرحه مسرحًا، كأنه قيل: وسخرها لكم تسخيرات بأمره، وقرئ: بنصب الليل والنهار وحدهما ورفع ما بعدهما على الابتداء والخبر، وقرئ: والنجوم مسخرات بالرفع وما قبله بالنصب، وقال: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ فجمع الآية ونكر العقل؛ لأنّ الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة وأبين شهادة للكبرياء والعظمة. ﴿وما ذرأ لكم﴾ معطوف على الليل والنهار يعني: ما خلق فيها من حيوان وشجر وثمر وغير ذلك مختلف الهيآت والمناظر.

وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾.

﴿لحمًا طريًا﴾[1] هو السمك، ووصفه بالطراءة لأنّ الفساد يسرع إليه، فيسارع إلى أكله خيفة الفساد عليه.

فإن قُلْتَ: ما بال الفقهاء قالوا: إذا حلف الرجل لا يأكل لحمًا فأكل سمكًا لم يحنث، والله تعالى سماه: لحمًا كما ترى؟ قُلْتُ: مبنى الأيمان على العادة، وعادة الناس إذا نكر اللحم على الإطلاق أن لا يفهم منه السمك، وإذا قال الرجل لغلامه اشتر بهذه الدراهم لحمًا فجاء بالسمك كان حقيقًا بالإنكار، ومثاله أنّ الله تعالى سمى الكافر: دابة في قوله: ﴿إنّ شرّ الدواب عند الله الذين كفروا﴾[2] فلو حلف حالف لا يركب دابة فركب كافرًا لم يحنث ﴿حلية﴾[3] هي: اللؤلؤ والمرجان، والمراد بلبسهم لبس نسائهم؛ لأنهنّ من جملتهم، ولأنهنّ إنما يتزين بها من أجلهم، فكأنما زينتهم ولباسهم. المخر: شق الماء بحيزومها، وعن الفراء هو: صوت جري الفلك بالرياح. وابتغاء الفضل التجارة.

وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾.

﴿أن تميد بكم﴾ كراهة أن تميل بكم وتضطرب، والمائد الذي يدار به إذا ركب البحر قيل: خلق الله الأرض فجعلت تمور، فقالت الملائكة: ما هي بمقرّ أحد على ظهرها، فأصبحت وقد أرسيت بالجبال لم تدر الملائكة مم خلقت ﴿وأنهارًا﴾ وجعل فيها أنهارًا؛ لأن القى فيه معنى جعل ألا ترى إلى قوله: ﴿ألم نجعل الأرض مهادًا * والجبال أوتادًا﴾[4].

وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾.

﴿وعلامات﴾ هي معالم الطرق وكل ما تستدل به السابلة من جبل ومنهل وغير ذلك. والمراد بالنجم: الجنس كقولك: كثر الدرهم في أيدي الناس، وعن السدي هو: الثريا والفرقدان وبنات نعش والجدي، وقرأ الحسن: وبالنجم بضمتين، وبضمة وسكون، وهو: جمع نجم كرهن ورهن، والسكون تخفيف، وقيل: حذف الواو من النجوم تخفيفًا.

فإن قُلْتَ: قوله: ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ مخرج عن سنن الخطاب، مقدم فيه النجم، مقحم فيه هم، كأنه قيل: وبالنجم خصوصًا هؤلاء خصوصًا يهتدون فمن المراد بهم؟ قُلْتُ: كأنه أراد قريشًا، كان لهم اهتداء بالنجوم في مسايرهم، وكان لهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم، فكان الشكر أوجب عليهم، والاعتبار ألزم لهم، فخصصوا.

أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾.

فإن قُلْتَ[5]: من لا يخلق أريد به الأصنام فلم جيء بمن الذي هو لأولي العلم؟ قُلْتُ: فيه أوجه أحدها: أنهم سموها آلهة وعبدوها فأجروها مجرى أولي العلم، ألا ترى إلى قوله على أثره ﴿والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئًا وهم

---

(1) قال أحمد: فكان ذلك تعليم لأكله، وإرشاد إلى أنه لا ينبغي أن يتناول إلا طرياً، والأطباء يقولون: إن تناوله بعد ذهاب طراوته، أضر شيء يكون، والله أعلم.

(2) سورة الأنفال، الآية: 55.

(3) قال أحمد: والله در مالك رضي الله عنه، حيث جعل للزوج الحجر على زوجته فيما له بال من مالها، وذلك مقدّر بالزائد على الثلث لحقه فيه بالتجمل، فانظر إلى مكنة حظ الرجال من مال النساء ومن زينتهنّ، حتى جعل حظ المرأة من مالها وزينتها حلية له، فعبر عن حظه في لبسها بلبسه، كما يعبر عن حظها بواء مؤيداً= بالحديث المروي في الباب، والله أعلم.

(4) سورة النبأ، الآيتان: 6 و7.

(5) قال أحمد: هو تحوّم على أنّ العباد يخلقون أفعالهم، وأن المراد: إظهار التفاوت بين من يخلق منهم، ومن لا يخلق، كالعاجزين والزمني حتى يثبت التفاوت بين من يخلق منهم، وبين الأصنام بطريق الأولى، ولقد تمكن منه الطمع، حتى اعتقد أنه يثبت خلق العبد لأفعاله بتنزيله الآية على هذا التأويل، ويتمنى لو تمّ له ذلك:

وما كلّ ما يتمنى المرء يدركه

يخلقون﴾[1] والثاني: المشاكلة بينه وبين من يخلق، والثالث: أن يكون المعنى أنّ من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم، فكيف بما لا علم عنده كقوله: ﴿ألهم أرجل يمشون بها﴾[2] يعني: أنّ الآلهة حالهم منحطة عن حال من لهم أرجل وأيد وآذان وقلوب؛ لأنّ هؤلاء أحياء وهم أموات، فكيف تصح لهم العبادة؟ لا أنها لو صحت لهم هذه الأعضاء لصحّ أن يعبدوا.

فإن قُلْتَ[3]: هو إلزام للذين عبدوا الأوثان وسموها آلهة تشبيهًا بالله، فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق، فكان حق الإلزام أن يقال لهم: أفمن لا يخلق كمن يخلق؟ **قُلْتُ**: حين جعلوا غير الله مثل الله في تسميته باسمه والعبادة له، وسووا بينه وبينه، فقد جعلوا الله تعالى من جنس المخلوقات وشبيهًا بها، فأنكر عليهم ذلك بقوله: **﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾.**

وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾.

﴿لا تحصوها﴾ لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم فضلاً أن تطيقوا القيام بحقها من أداء الشكر، اتبع ذلك ما عدّد من نعمه تنبيهًا على أنّ وراءها ما لا ينحصر ولا ينعدّ **﴿إنّ الله لغفور رحيم﴾** حيث يتجاوز عن تقصيركم في أداء شكر النعمة، ولا يقطعها عنكم لتفريطكم، ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها **﴿والله يعلم ما تسرون وما تعلنون﴾** من أعمالكم، وهو وعيد.

وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾.

﴿والذين يدعون﴾ والآلهة الذين يدعوهم الكفار **﴿من دون الله﴾** وقرئ: بالتاء، وقرئ: يدعون على البناء للمفعول. نفى عنهم خصائص الإلٰهية بنفي كونهم خالقين وأحياء لا يموتون وعالمين بوقت البعث، وأثبت لهم صفات الخلق بأنهم مخلوقون وأنهم أموات وأنهم جاهلون بالغيب، ومعنى **﴿أموات غير أحياء﴾** أنهم لو كانوا آلهة على الحقيقة لكانوا أحياء غير أموات أي: غير جائز عليها الموت كالحيّ الذي لا يموت، وأمرهم على العكس من ذلك، والضمير في يبعثون للداعين أي: لا يشعرون متى تبعث عبدتهم، وفيه تهكم بالمشركين وأنّ آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم، فكيف يكون لهم وقت جزاء منهم على عبادتهم؟ وفيه دلالة على أنه لابدّ من البعث أنه من لوازم التكليف، ووجه آخر وهو: أن يكون المعنى: أن الناس يخلقونهم بالنحت والتصوير، وهم لا يقدرون على نحو ذلك، فهم أعجز من عبدتهم أموات جمادات لا حياة فيها غير أحياء يعني: أنّ من الأموات ما يعقب موته حياة كالنطف التي ينشئها الله حيوانًا، وأجساد الحيوان التي تبعث بعد موتها، وأمّا الحجارة فأموات لا يعقب موتها حياة، وذلك أعرق في موتها **﴿وما يشعرون أيان يبعثون﴾** أي: وما يعلم هؤلاء الآلهة متى تبعث الأحياء، تهكمًا بحالها لأنّ شعور الجماد محال، فكيف بشعور ما لا يعلمه حي إلا الحيّ القيوم سبحانه، ووجه ثالث: وهو أن يراد بالذين يدعون الملائكة، وكان ناس منهم يعبدونهم، وأنهم أموات أي: لا بدّ لهم من الموت، غير أحياء: غير باقية حياتهم، وما يشعرون: ولا علم لهم بوقت بعثهم، وقرئ: إيان بكسر الهمزة.

إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾.

﴿إلٰهكم إلٰه واحد﴾ يعني: أنه قد ثبت بما تقدّم من إبطال أن تكون الإلٰهية لغيره وأنها له وحده لا شريك له فيها. فكان من نتيجة ثبات الوحدانية ووضوح دليلها استمرارهم على شركهم، وأنّ قلوبهم منكرة للوحدانية، وهم مستكبرون عنها وعن الإقرار بها **﴿لا جرم﴾** حقًا **﴿أنّ الله يعلم﴾** سرّهم وعلانيتهم فيجازيهم، وهو وعيد **﴿إنه لا يحب المستكبرين﴾** يجوز أن يريد المستكبرين عن التوحيد يعني: المشركين، ويجوز أن يعمّ كلّ مستكبر، ويدخل هؤلاء تحت عمومه.

لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾.

﴿ماذا﴾ منصوب بانزل بمعنى: أي شيء **﴿أنزل ربكم﴾**، أو مرفوع بالابتداء بمعنى: أيّ شيء أنزله ربكم، فإذا نصبت فمعنى **﴿أساطير الأوّلين﴾** ما يدعون نزوله أساطير الأوّلين، وإذا رفعته فالمعنى: المنزل أساطير الأوّلين كقوله: ﴿ماذا ينفقون قل العفو﴾[4] فيمن رفع.

فإن قُلْتَ: هو كلام متناقض؛ لأنه لا يكون منزل بهم وأساطير؟ **قُلْتُ**: هو على السخرية كقوله: ﴿إنّ رسولكم﴾[5] هو كلام بعضهم لبعض، أو قول المسلمين لهم، وقيل: هو قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله ﷺ، إذا سألهم وفود الحاج عما أنزل على رسول الله ﷺ قالوا: أحاديث الأوّلين وأباطيلهم.

لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾.

---

(1) سورة النحل، الآية: 20.

(2) سورة الأعراف، الآية: 195.

(3) قال أحمد:وقد تقدّم الكلام في ذلك عند قوله تعالى: ﴿وليس الذكر = كالانثى﴾ فجدّد بها عهداً.

(4) سورة البقرة، الآية: 219.

(5) سورة الشعراء، الآية: 27.

﴿ليحملوا أوزارهم﴾ أي: قالوا ذلك إضلالاً للناس وصدّاً عن رسول الله ﷺ فحملوا أوزار ضلالهم ﴿كاملة﴾ وبعض أوزار من ضلّ بضلالهم وهو وزر الإضلال؛ لأنّ المضلّ والضالّ شريكان هذا يضله وهذا يطاوعه على إضلاله فيتحاملان الوزر، ومعنى اللام: التعليل من غير أن يكون غرضًا كقولك: خرجت من البلد مخافة الشر ﴿بغير علم﴾ حال من المفعول أي: يضلون من لا يعلم أنهم ضلال، وإنما وصف بالضلال واحتمال الوزر من أضلوه وإن لم يعلم؛ لأنه كان عليه أن يبحث وينظر بعقله حتى يميز بين المحق والمبطل.

قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾.

القواعد أساطين البناء التي تعمده وقيل: الأساس، وهذا تمثيل يعني: أنهم سوّوا منصوبات ليمكروا بها الله ورسوله، فجعل الله هلاكهم في تلك المنصوبات كحال قوم بنوا بنيانًا وعمده بالأساطين فأتى البنيان من الأساطين بأن ضعضعت فسقط عليهم السقف وهلكوا، ونحوه: من حفر لأخيه جبًا وقع فيه منكبًا، وقيل: هو نمروذ بن كنعان حين بني الصرح ببابل طوله خمسة آلاف ذراع، وقيل: فرسخان، فأهب الله الريح فخرّ عليه وعلى قومه فهلكوا. ومعنى إتيان الله: إتيان أمره ﴿من القواعد﴾ من جهة القواعد ﴿من حيث لا يشعرون﴾ من حيث لا يحتسبون ولا يتوقعون. وقرئ: فأتى الله بيتهم فخرّ عليهم السقف بضمتين.

ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾.

﴿يخزيهم﴾ بنلهم بعذاب الخزي: ﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته﴾[1] يعني: هذا لهم في الدنيا ثم العذاب في الآخرة ﴿شركائي﴾ على الإضافة إلى نفسه، حكاية لإضافتهم ليوبخهم بها على طريق الاستهزاء بهم ﴿تشاقون فيهم﴾ تعادون وتخاصمون المؤمنين في شأنهم ومعناهم، وقرئ: تشاقون بكسر النون بمعنى: تشاقونني؛ لأنّ مشاقة المؤمنين كانها مشاقة الله ﴿قال الذين أوتوا العلم﴾ هم الأنبياء والعلماء من أممهم الذين كانوا يدعونهم إلى الإيمان ويعظونهم، فلا يلتفتون إليهم ويتكبرون عليهم ويشاقونهم، يقولون ذلك شماتة بهم، وحكى الله ذلك من قولهم ليكون لطفًا لمن سمعه، وقيل: هم الملائكة.

ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾.

قرئ: تتوفاهم بالتاء والياء، وقرئ: الذين توفاهم بإدغام التاء في التاء ﴿فألقوا السلم﴾ فسالموا وأخبتوا وجاؤوا بخلاف ما كانوا عليه في الدنيا من الشقاق والكبر وقالوا: ﴿ما كنا نعمل من سوء﴾ وجحدوا ما وجد منهم من الكفر والعدوان، فردّ عليهم أولوا العلم ﴿إن الله عليم بما كنتم تعملون﴾ فهو يجازيكم عليه، وهذا أيضًا من الشماتة، وكذلك ﴿فادخلوا أبواب جهنم... خيرًا﴾ أنزل خيرًا.

فإن قُلْتَ: لم نصب هذا ورفع الأوّل؟ **قُلْتُ:** فصلاً بين جواب المقرّ وجواب الجاحد، يعني: أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعثموا وأطبقوا الجواب على السؤال بينًا مكشوفًا مفعولاً للإنزال، فقالوا: خيرًا، أي: أنزل خيرًا، وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا: هو أساطير الأوّلين، وليس من الإنزال في شيء، وروي أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي ﷺ، فإذا جاء الوافد كفه المقتسمون وأمروه بالانصراف، وقالوا: إن لم تلقه كان خيرًا لك، فيقول: أنا شر وافد إن رجعت إلى قومي دون أن أستطلع أمر محمد وأراه، فيلقى أصحاب رسول الله ﷺ فيخبرونه بصدقه وأنه نبيّ مبعوث، فهم الذين قالوا خيرًا، وقوله: ﴿للذين أحسنوا﴾ وما بعده، بدل من خيرًا حكاية لقوله: الذين اتقوا، أي: قالوا هذا القول فقدّم عليه تسميته خيرًا ثم حكاه، ويجوز أن يكون كلامًا مبتدأ عدة للقائلين، ويجعل قولهم من جملة إحسانهم ويحمدوا عليه ﴿حسنة﴾ مكافأة في الدنيا بإحسانهم، ولهم في الآخرة ما هو خير منها كقوله: ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة﴾[2] ﴿ولنعم دار المتقين﴾ دار الآخرة فحذف المخصوص بالمدح لتقدّم ذكره، و﴿جنات عدن﴾ خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون المخصوص بالمدح ﴿طيبين﴾ طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي لأنه في مقابلة ﴿ظالمي أنفسهم﴾، ﴿يقولون سلام عليكم﴾ قيل: إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال: السلام عليك يا وليّ الله، الله يقرأ عليك السلام، وبشره بالجنة.

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ

(1) سورة آل عمران، الآية: 192.

(2) سورة آل عمران، الآية: 148.

يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾.

﴿تاتيهم الملائكة﴾ قرئ بالتاء والياء يعني: أن تأتيهم لقبض الأرواح و **﴿أمر ربك﴾** العذاب المستأصل، أو القيامة **﴿كذلك﴾** أي: مثل ذلك الفعل من الشر والتكذيب **﴿فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله﴾** بتدميرهم **﴿ولكن كانوا انفسهم يظلمون﴾** لأنهم فعلوا ما استوجبوا به التدمير **﴿سيئات ما عملوا﴾** جزاء سيئات أعمالهم، أو هو كقوله: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾[1] هذا من جملة ما عدّد من أصناف كفرهم وعنادهم من شركهم بالله وإنكار وحدانيته بعد قيام الحجج، وإنكار البعث واستعجاله استهزاء منهم به، وتكذيبهم الرسول، وشقاقهم واستكبارهم عن قبول الحق، يعني: أنهم أشركوا[2] بالله وحرّموا ما أحل الله من البحيرة والسائبة وغيرهما، ثم نسبوا فعلهم إلى الله وقالوا: لو شاء لم نفعل، وهذا مذهب المجبرة بعينه **﴿كذلك فعل الذين من قبلهم﴾** أي: أشركوا وحرموا حلال الله، فلما نبهوا على قبح فعلهم وركوه على ربهم **﴿فهل على الرسل﴾** إلا أن يبلغوا الحق، وأن الله لا يشاء الشرك والمعاصي بالبيان والبرهان، ويطلعوا على بطلان الشرك وقبحه، وبراءة الله تعالى من أفعال العباد وأنهم فاعلوها بقصدهم وإرادتهم واختيارهم، والله تعالى باعثهم على جميلها وموفقهم له، وزاجرهم عن قبيحها وموعدهم عليه.

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾.

ولقد أمد إبطال قدر السوء ومشيئة الشر بأنه ما من أمة إلا وقد بعث فيهم رسولاً يأمرهم بالخير الذي هو: الإيمان وعبادة الله، وباجتناب الشر الذي هو: طاعة الطاغوت **﴿فمنهم من هدى الله﴾** أي: لطف به؛ لأنه عرفه من أهل اللطف **﴿ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾** أي: ثبت عليه الخذلان والترك من اللطف؛ لأنه عرفه مصمماً على الكفر لا يأتي منه خير **﴿فسيروا في الأرض فانظروا﴾** ما فعلت بالمكذبين، حتى لا يبقى لكم شبهة في أني لا أقدر الشر ولا أشاؤه حيث أفعل ما أفعل بالأشرار.

إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾.

ثم نكر عناد قريش وحرص رسول الله ﷺ على إيمانهم، وعرفه أنهم من قسم من حقت عليه الضلالة وأنه **﴿لا يهدي من يضل﴾** أي: لا يلطف بمن يخذل لأنه عبث، والله تعالى متعال عن العبث لأنه من قبيل القبائح التي لا تجوز عليه، وقرئ: لا يهدي أي: لا تقدر أنت ولا أحد على هدايته وقد خذله الله، وقوله: **﴿وما لهم من ناصرين﴾** دليل على أنّ المراد بالإضلال الخذلان الذي هو: نقيض النصرة، ويجوز أن يكون لا يهدي بمعنى: لا يهتدي، يقال: هداه الله فهدى، وفي قراءة أبيّ فإنّ الله لا هادي لمن يضل، ولمن أضلّ، وهي معاضدة لمن قرأ لا يهدي على البناء للمفعول، وفي قراءة عبد الله يهدي بإدغام تاء يهتدي، وهي معاضدة للأولى. وقرئ: يضل بالفتح. وقرأ النخعي: إن تحرص بفتح الراء وهي لغة.

وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾.

﴿وأقسموا بالله﴾ معطوف على **﴿وقال الذين أشركوا﴾**[3] إيذاناً بأنهما كفرتان عظيمتان موصوفتان حقيقتان بأن تحكيا وتدوّنا توريك ذنوبهم على مشيئة الله، وإنكارهم البعث مقسمين عليه، و**﴿بلى﴾** إثبات لما بعد النفي أي: بلى يبعثهم. ووعد الله مصدر مؤكد لما دلّ عليه بلى؛ لأن يبعث موعد من الله، وبين أنّ الوفاء بهذا الموعد حق واجب عليه في الحكمة **﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾** أنهم يبعثون، أو أنه وعد واجب على الله

---

(1) سورة الشورى، الآية: 40.

(2) قال أحمد: قد تكرّر منه مثل هذا الفصل في أخت الآية المقدّمة في سورة الأنعام، وقد قدّمنا حينئذ ما فيه مقنع إن شاء الله، والذي زاده هنا يثبت معتقده على ما زعمه بقوله تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمّة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ ووجه تمسكه به أنّ الله تعالى قسم العبادة إلى قسمين، مأمور به ومنهى عنه، والأمر والنهي عند المصنف، راجعان إلى المشيئة بناء على زعم القدرية في إنكار كلام النفس، وحمل الاقتضاء على الإرادة، فالحاصل حينئذ من هذه التتمة أن الله شاء عبادة الخلق له، وشاء اجتنابهم عبادة الطاغوت، ولم يشأ منهم أن يشركوا به، وأخبر بهذه المشيئة على لسان كل رسول بعثه إلى أمّة من الأمم، فجاءت التتمة مترجمة عن معنى صدر الآية، مؤكدة بمقتضاها، هذا هو الذي زاده المصنف ههنا، وقد بينا أنّ مبناه على إنكار = كلام النفس الثابت قطعاً، فهو باطل جزماً، والعجب أنّ الله تعالى أوضح في الآيتين جميعاً، أنّ الذي أنكره من القائلين لو شاء الله ما أشركنا، إنما هو احتجاجهم على الله تعالى بمشيئته التي لا حجة لهم فيها مع ما خلق لهم من الاختيار، بقوله ههنا ﴿فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾ وبقوله في آخر آية الأنعام: ﴿فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ فتبين فيهما أنه هو الذي شاء منهم الإشراك والضلالة ولو شاء هدايتهم أجمعين، لاهتدوا عن آخرهم، وحصل من هذا البيان صرف الإنكار عليهم إلى غير نسبة المشيئة لله تعالى، وذلك هو الذي قدمناه في إقامتهم الحجة على الله بمشيئته، مع أنّ حجتهم في ذلك داحضة، ولله عليهم الحجة البالغة الواضحة، والله الموفق.

(3) سورة النحل، الآية: 35.

لأنهم يقولون: لا يجب على الله شيء، لا ثواب عامل، ولا غيره من مواجب الحكمة ﴿ليبين لهم﴾ متعلق بما دلّ عليه بلى، أي: يبعثهم ليبيّن لهم، والضمير لمن يموت، وهو عام للمؤمنين والكافرين، والذين اختلفوا فيه هو الحق ﴿وليعلم الذين كفروا أنهم﴾ كذبوا في قولهم: ﴿لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء﴾[1] وفي قولهم: ﴿لا يبعث الله من يموت﴾ وقيل: يجوز أن يتعلق بقوله: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً﴾[2] أي: بعثناه ليبيّن لهم ما اختلفوا فيه وإنهم كانوا على الضلالة قبله مفترين على الله الكذب.

إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾.

﴿قولنا﴾ مبتدأ و﴿أن نقول﴾ خبره و﴿كن فيكون﴾ من كان التامة التي بمعنى الحدوث والوجود، أي: إذا أردنا وجود شيء فليس إلا أن نقول له: حدث فهو يحدث عقيب ذلك لا يتوقف، وهذا مثل؛ لأنّ مرادًا لا يمتنع عليه وأنّ وجوده عند إرادته تعالى غير متوقف كوجود المأمور به عند أمر الآمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع المتمثل ولا قول ثم والمعنى: أنّ إيجاد كل مقدور على الله تعالى بهذه السورة، فكيف يمتنع عليه البعث الذي هو من شق المقدورات، وقرئ: فيكون عطفًا على نقول.

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾.

﴿والذين هاجروا﴾ هم: رسول الله ﷺ وأصحابه، ظلمهم أهل مكة ففروا بدينهم إلى الله، منهم من هاجر إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، فجمع بين الهجرتين، ومنهم من هاجر إلى المدينة، وقيل هم: الذين كانوا محبوسين معذبين بعد هجرة رسول الله ﷺ وكلما خرجوا تبعوهم فردوهم، منهم: بلال، وصهيب، وخباب، وعمار، وعن صهيب أنه قال لهم: أنا رجل كبير، إن كنت معكم لم أنفعكم، وإن كنت عليكم لم أضركم، فافتدى منهم بماله وهاجر، فلما رآه أبو بكر رضي الله عنه قال له: ربح البيع يا صهيب، وقال له عمر: نعم الرجل صهيب لو لم يخف الله لم يعصه، وهو ثناء عظيم يريد لو لم يخلق الله نارًا لأطاعه، فكيف ﴿في الله﴾ في حقه ولوجهه ﴿حسنة﴾ صفة للمصدر أي: لبنوأنهم تبوئة حسنة، وفي قراءة علي رضي الله عنه: لنثوينهم، ومعناه: أثواة حسنة، وقيل: لننزلنهم في الدنيا منزلة حسنة وهي: الغلبة على أهل مكة الذين ظلموهم، وعلى العرب قاطبة، وعلى أهل المشرق والمغرب، وعن عمر رضي الله عنه: أنه كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاء قال: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعد ربك في الدنيا، وما ذكر لك في الآخرة أكثر، وقيل: لنبوانهم مباءة حسنة وهي: المدينة حيث آواهم أهلها ونصروهم ﴿لو كانوا يعلمون﴾ الضمير للكفار أي: لو علموا أنّ الله يجمع لهؤلاء المستضعفين في أيديهم الدنيا والآخرة لرغبوا في دينهم، ويجوز أن يرجع الضمير إلى المهاجرين أي: لو كانوا يعلمون ذلك لزادوا في اجتهادهم وصبرهم.

ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾.

﴿الذين صبروا﴾ على هم الذين صبروا، أو أعني الذين صبروا وكلاهما مدح أي: صبروا على العذاب، وعلى مفارقة الوطن الذي هو حرم الله المحبوب في كل قلب، فكيف بقلوب قوم هو مسقط رؤوسهم، وعلى المجاهدة وبذل الأرواح في سبيل الله.

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾.

قالت قريش: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرًا فقيل ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً يوحى إليهم﴾ على ألسنة الملائكة ﴿فاسئلوا أهل الذكر﴾ وهم أهل الكتاب ليعلموكم أنّ الله لم يبعث إلى الأمم السالفة إلا بشرًا.

فإن قُلْتَ: بم تعلق قوله: ﴿بالبينات﴾؟ **قُلْتُ:** له متعلقات شتى، فإما أن يتعلق بما أرسلنا داخلاً تحت حكم الاستثناء مع رجالاً أي: وما أرسلنا إلا رجالاً بالبينات كقولك: ما ضربت إلا زيدًا بالسوط؛ لأن أصله ضربت زيدًا بالسوط، وإما برجالاً صفة له أي: رجالاً ملتبسين بالبينات، وإما بأرسلنا مضمرًا كأنما قيل: بم أرسلوا؟ فقلت: بالبينات، فهو على كلامين، والأوّل على كلام واحد، وإما بيوحي أي: يوحي إليهم بالبينات، وإما بلا تعلمون على أن الشرط في معنى التبكيت والإلزام، كقول الأجير: إن كنت عملت لك فأعطني حقي، وقوله: ﴿فاسئلوا أهل الذكر﴾ اعتراض على الوجوه المتقدّمة، وأهل الذكر أهل الكتاب، وقيل للكتاب: الذكر لأنه موعظة وتنبيه للغافلين ﴿ما نزل إليهم﴾ يعني: ما نزل الله إليهم في الذكر مما أمروا به ونهوا عنه ووعدوا وأوعدوا ﴿ولعلهم يتفكرون﴾ وإرادة أن يصغوا إلى تنبيهاته فيتنبهوا ويتأملوا.

أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ۖ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾.

﴿مكروا السيئات﴾ أي: المكرات السيئات، وهم أهل مكة، وما مكروا به رسول الله ﷺ ﴿في تقلبهم﴾ متقلبين في مسايرهم ومتاجرهم وأسباب دنياهم ﴿على تخوف﴾ متخوفين، وهو أن يهلك قومًا قبلهم فيتخوفوا فيأخذهم بالعذاب، وهم متخوفون متوقعون، وهو خلاف قوله: ﴿من حيث لا يشعرون﴾ وقيل: هو من قولك: تخوفته وتخونته

(1) سورة النحل، الآية: 35.

(2) سورة النحل، الآية: 36.

إذا تنقصته، قال زهير:

تخوف الرجل منها تامكًا قردا كما تخوف عود النبعة السفن

أي: يأخذهم على أن ينتقصهم شيئًا بعد شيء في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا، وعن عمر رضي الله عنه أنه قال على المنبر: ما تقولون فيها؟ فسكتوا، فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا، التخوف: التنقص، قال: فهل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم. قال شاعرنا، وأنشد البيت. فقال عمر: أيها الناس عليكم بديوانكم لا يضل. قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإنّ فيه تفسير كتابكم ﴿فإن ربكم لرؤوف رحيم﴾ حيث يحلم عنكم، ولا يعاجلكم مع استحقاقكم.

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾.

قرئ: أولم يروا ويتفيؤا بالياء والتاء. وما موصولة بخلق الله وهو مبهم بيانه ﴿من شيء يتفيؤا ظلاله﴾ واليمين بمعنى: الأيمان و ﴿سجدًا﴾ حال من الظلال ﴿وهم داخرون﴾ حال من الضمير في ظلاله لأنه في معنى الجمع، وهو: ما خلق الله من كل شيء له ظل، وجمع بالواو لأن الدخور من أوصاف العقلاء، أو لأن في جملة ذلك من يعقل فغلب، والمعنى: أولم يروا إلى ما خلق الله من الأجرام التي لها ظلال متفيئة عن أيمانها وشمائلها أي: عن جانبي كل واحد منها، وشقيه استعارة من يمين الإنسان وشماله لجانبي الشيء أي: ترجع الظلال من جانب إلى جانب منقادة لله غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التفيؤ، والأجرام في أنفسها داخرة أيضًا صاغرة منقادة لأفعال الله فيها لا تمتنع.

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾.

﴿من دابة﴾ ويجوز أن يكون بيانًا لما في السمٰوات وما في الأرض جميعًا، على أنّ في السمٰوات خلقًا لله يدبون فيها كما يدب الأناسي في الأرض، وأن يكون بيانًا لما في الأرض وحده ويراد بما في السمٰوات الخلق الذي يقال له الروح، وأن يكون بيانًا لما في الأرض وحده ويراد بما في السمٰوات الملائكة، وكرّر نكرهم على معنى: والملائكة خصوصًا من بين الساجدين لأنهم أطوع الخلق وأعبدهم، ويجوز أن يراد بما في السمٰوات ملائكتهنّ وبقوله: والملائكة ملائكة الأرض من الحفظة وغيرهم.

فإن قُلْتَ[1]: سجود المكلفين مما انتظمه هذا الكلام خلاف سجود غيرهم، فكيف عبر عن النوعين بلفظ واحد؟ **قُلْتُ**: المراد بسجود المكلفين طاعتهم وعبادتهم، وبسجود غيرهم انقياده لإرادة الله وأنها غير ممتنعة عليها، وكلا السجودين يجمعهما معنى الانقياد فلم يختلفا، فلذلك جاز أن يعبر عنهما بلفظ واحد.

فإن قُلْتَ: فهلا جيء بمن دون ما تغليبًا للعقلاء من الدواب على غيرهم؟ **قُلْتُ**: لأنه لو جيء بمن لم يكن فيه دليل على التغليب فكان متناولاً للعقلاء خاصة فجيء بما هو صالح للعقلاء وغيرهم إرادة العموم.

﴿يخافون﴾[2] يجوز أن يكون حالاً من الضمير في لا يستكبرون أي: لا يستكبرون خائفين وأن يكون بيانًا لنفي الاستكبار وتأكيدًا له؛ لأنّ من خاف الله لم يستكبر عن عبادته ﴿من فوقهم﴾ إن علقته بيخافون فمعناه: يخافونه أن يرسل عليهم عذابًا من فوقهم، وإن علقته بربهم حالاً منه فمعناه: يخافون ربهم عاليًا قاهرًا كقوله: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾[3] ﴿وإنا فوقهم قاهرون﴾[4] وفيه دليل على أنّ الملائكة مكلفون مدارون على الأمر والنهي، والوعد والوعيد، كسائر المكلفين، وأنهم بين الخوف والرجاء.

وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾.

فإن قُلْتَ: إنما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين فقالوا: عندي رجال ثلاثة، وأفراس أربعة؛ لأنّ المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص، وأما رجل ورجلان وفرس وفرسان، فمعدودان فيهما دلالة على العدد، فلا حاجة إلى أن يقال: رجل واحد، ورجلان اثنان، فما وجه قوله[5]: ﴿إلهين اثنين﴾؟ **قُلْتُ**: الاسم الحامل لمعنى الإفراد والتثنية دال على شيئين: على الجنسية؛ والعدد المخصوص. فإذا أريدت الدلالة على أنّ المعنى به منهما والذي يساق إليه

---

(1) قال أحمد: وهذا ما يتمسك به لمن اختار تناول اللفظ الواحد لحقيقته، ومجازه شمولاً، ولم ير ذلك متناقضاً، فإنّ السجود يتناول فعل المكلف حقيقة، ويتناول حال غير المكلف بطريق مجاز التشبيه، وقد أريد جميعاً من الآية، والزمخشري ينكر ذلك في مواضع مررت عليها من كتابه، هذا وظاهر مراده ههنا أنّ السجود عبارة عن قدر مشترك بين فعل المكلف، وحال غير المكلف، وهو عدم الامتناع عند القدرية، وغرضه من ذلك أن يكون اللفظ متواطئاً فيهما جميعاً، ليسلم من الجمع بين الحقيقة والمجاز؛ لأنه يأبى ذلك، ولا يتم له هذا المقصد في الآية، والله أعلم، لأنّ كونها آية سجدة يدل على أنّ المراد من السجود = المذكور فيها منسوباً للمكلفين، وهو الفعل الخاص المتعارف شرعاً، الذي يكون ذكره سبباً لفعله سببية معتادة في عزائم السجود، لا القدر الأعم المشترك، والله أعلم.

(2) قال أحمد: هذا هو الوجه الثاني ليس الأوّل، وأما الحال فيعطي انتقالاً، ويوهم تقيد العدم استكبارهم، مع أنّ الواقع أنّ عدم استكبارهم مطلق، غير مقيد بحال، والله موفق.

(3) سورة الأنعام، الآيتان: 18 و61.

(4) سورة الأعراف، الآية: 127.

(5) قال أحمد: وهذا الفصل من حسناته التي لا يدافع عنها، والله الموفق.

الحديث هو العدد، شفع بما يؤكده فدل به على القصد إليه والعناية به، ألا ترى أنك لو قلت: إنما هو إله ولم تؤكده بواحد لم يحسن، وخيل أنك تثبت الإلٰهية لا الوحدانية ﴿فإياي فارهبون﴾ نقل الكلام عن الغيبة إلى التكلم وجاز لأنّ الغائب هو المتكلم، وهو من طريقة الالتفات وهو أبلغ في الترهيب من قوله: وإياه فارهبوه، ومن أن يجيء ما قبله على لفظ المتكلم.

وَلَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾.

﴿الدين﴾ الطاعة ﴿واصبًا﴾ حال عمل فيه الظرف، والواصب: الواجب الثابت؛ لأنّ كل نعمة منه، فالطاعة واجبة له على كل منعم عليه، ويجوز أن يكون من الوصب أي: وله الدين ذا كلفة ومشقة، ولذلك سمي تكليفًا، أو وله الجزاء ثابتًا دائمًا سرمدًا لا يزول. يعني: والثواب العقاب.

وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾.

﴿وما بكم من نعمة﴾ أي شيء حل بكم، أو اتصل بكم من نعمة فهو من الله ﴿فإليه تجارون﴾ فما تتضرعون إلا إليه، والجؤار: رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة، قال الأعشى يصف راهبًا:

يراوح من صلوات المليـ ـك طورًا سجودًا وطورًا جؤورًا

وقرئ*: تجرون بطرح الهمزة وإلقاء حركتها على الجيم.

ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾.

وقرأ قتادة: كاشف الضر على فاعل بمعنى فعل وهو: أقوى من كشف؛ لأنّ بناء المغالبة يدل على المبالغة.

فإن قُلْتَ: فما معنى قوله: ﴿إذا فريق منكم بربهم يشركون﴾؟ **قُلْتُ:** يجوز أن يكون الخطاب في قوله: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ عامًا، ويريد بالفريق: فريق الكفرة، وأن يكون الخطاب للمشركين ومنكم للبيان لا للتبعيض، كأنه قال: فإذا فريق كافروهم أنتم، ويجوز أن يكون فيهم من اعتبر، كقوله: ﴿فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد﴾[1].

لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾.

﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ من نعمة الكشف عنهم، كأنهم جعلوا غرضهم في الشرك كفران النعمة ﴿فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ تخلية ووعيد، وقرئ*: فيمتعوا بالياء مبنيًا للمفعول عطفًا على ليكفروا، ويجوز أن يكون ليكفروا فيمتعوا من الأمر الوارد في معنى: الخذلان والتخلية، واللام لام الأمر.

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾.

﴿لما لا يعلمون﴾ أي: لآلهتهم ومعنى لا يعلمونها: أنهم يسمونها آلهة ويعتقدون فيها أنها تضر وتنفع وتشفع عند الله وليس كذلك، وحقيقتها أنها جماد لا يضر ولا ينفع، فهم إذًا جاهلون بها، وقيل الضمير في لا يعلمون للآلهة أي: لأشياء غير موصوفة بالعلم ولا تشعر، أجعلوا لها نصيبًا في أنعامهم وزروعهم أم لا؟ وكانوا يجعلون لهم تلك تقربًا إليهم ﴿لتسئلن﴾ وعيد ﴿عما كنتم تفترون﴾ من الإفك في زعمكم أنها آلهة، وأنها أهل للتقرب إليها.

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾.

كانت خزاعة وكنانة تقول: الملائكة بنات الله ﴿سبحانه﴾ تنزيه لذاته من نسبة الولد إليه، أو تعجب من قولهم ﴿ولهم ما يشتهون﴾ يعني: البنين، ويجوز في ما يشتهون الرفع على الابتداء والنصب على أن يكون معطوفًا على البنات، أي: وجعلوا لأنفسهم ما يشتهون من الذكور و﴿ظل﴾[2] بمعنى: صار كما يستعمل بات وأصبح وأمسى بمعنى: الصيرورة، ويجوز أن يجيء ظل لأنّ أكثر الوضع يتفق بالليل، فيظل نهاره مغتمًا مربد الوجه من الكآبة والحياء من الناس ﴿وهو كظيم﴾ مملوء حنقًا على المرأة ﴿يتوارى من القوم﴾ يستخفي منهم ﴿من﴾ أجل ﴿سوء﴾ المبشر به ومن أجل تعييرهم ويحدّث نفسه وينظر أيمسك ما بشّر به ﴿على هون﴾ على هوان وذل ﴿أم يدسه في التراب﴾ أم يئده. وقرئ*: أيمسكها على هون، أم يدسها على التانيث، وقرئ*: على هوان ﴿ألا ساء ما يحكمون﴾ حيث يجعلون الولد الذي هذا محله عندهم لله، ويجعلون لأنفسهم من هو على عكس هذا الوصف.

لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾.

﴿مثل السوء﴾ صفة السوء وهي الحاجة إلى الأولاد الذكور وكراهة الإناث وأودهنّ خشية الإملاق، وإقرارهم على أنفسهم بالشح البالغ ﴿ولله المثل الأعلى﴾ وهو الغني عن العالمين، والنزاهة عن صفات المخلوقين، وهو الجواد الكريم.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾.

﴿بظلمهم﴾ بكفرهم ومعاصيهم ﴿ما ترك عليها﴾ أي:

---

(1) سورة لقمان، الآية: 32.

(2) قال أحمد: وجاز أن يراد: الظلول نهاراً، لقصد المبالغة في وصفهم بالعناد والإصرار، وأنهم لو عرجوا نهاراً في الوقت الذي يتغابى = على البصر شيء إلى السماء، لتمادوا على كفرهم وتكذيبهم، والله أعلم.

على الأرض ﴿من دابة﴾ قط، ولأهلكها كلها بشؤم ظلم الظالمين، وعن أبي هريرة أنه سمع رجلاً يقول: إنّ الظالم لا يضرّ إلا نفسه، فقال: بلى والله حتى إنّ الحبارى لتموت في وكرها بظلم الظالم[1]، وعن ابن مسعود: كاد الجعل يهلك في حجره بذنب ابن آدم أو من دابة ظالمة[2]، وعن ابن عباس: من دابة: من مشرك يدب عليها، وقيل: لو أهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء.

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾.

﴿ويجعلون لله ما يكرهون﴾[3] لأنفسهم من البنات، ومن شركاء في رياستهم، ومن الاستخفاف برسلهم، والتهاون برسالاتهم ويجعلون له أرذل أموالهم، ولأصنامهم أكرمها ﴿وتصف ألسنتهم﴾ مع ذلك ﴿أن لهم الحسنى﴾ عند الله كقوله: ﴿ولئن رجعت إلى ربي إنّ لي عنده للحسنى﴾[4] وعن بعضهم أنه قال لرجل من ذوي اليسار: كيف تكون يوم القيامة إذا قال الله تعالى: هاتوا ما دفع إلى السلاطين وأعوانهم؟ فيؤتى بالدواب والثياب وأنواع الأموال الفاخرة وإذا قال: هاتوا ما دفع إليّ؟ فيؤتى بالكسر والخرق وما لا يؤبه له، أما تستحيي من ذلك الموقف؟ وقرأ هذه الآية، وعن مجاهد: ﴿إنّ لهم الحسنى﴾ هو قول قريش: لنا البنون وإنّ لهم الحسنى بدل من الكذب. وقرئ: الكذب جمع كذوب صفة للألسنة ﴿مفرطون﴾ قرئ: مفتوح الرّاء ومكسورها مخففًا ومشدّدًا، فالمفتوح بمعنى: مقدمون إلى النار معجلون إليها من أفرطت فلانًا وفرّطته في طلب الماء إذا قدمته، وقيل: منسيون متروكون من أفرطت فلانًا خلفي إذا خلفته ونسيته، والمكسور المخفف من الإفراط في المعاصي، والمشدّد من التفريط في الطاعات وما يلزمهم.

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾.

﴿فهو وليهم اليوم﴾ حكاية الحال الماضية التي كان يزين لهم الشيطان أعمالهم فيها، أو فهو وليهم في الدنيا فجعل اليوم عبارة عن زمان الدنيا، ومعنى وليهم: قرينهم وبئس القرين، أو يجعل ﴿فهو وليهم اليوم﴾ حكاية للحال الآتية وهي: حال كونهم معذبين في النار أي: فهو ناصرهم اليوم لا ناصر لهم غيره نفيًا للناصر لهم على أبلغ الوجوه، ويجوز أن يرجع الضمير إلى مشركي قريش أنه زين للكفار قبلهم أعمالهم فهو ولي هؤلاء لأنهم منهم، ويجوز أن يكون على حذف المضاف أي: فهو ولي أمثالهم اليوم.

وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾.

﴿وهدى ورحمة﴾ معطوفان على محل لتبين إلا أنهما انتصبا على أنهما مفعول لهما، لأنهما فعلا الذي أنزل الكتاب. ودخل اللام على لتبين؛ لأنه فعل المخاطب لافعل المنزل، وإنما ينتصب مفعولاً له ما كان فعل فاعل الفعل المعلل. والذي اختلفوا فيه البعث؛ لأنه كان فيهم من يؤمن به ومنهم عبد المطلب، وأشياء من التحريم والتحليل والإنكار والإقرار. ﴿لقوم يسمعون﴾ سماع إنصاف وتدبر؛ لأنّ من يسمع بقلبه فكأنه أصم لا يسمع.

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾.

نكر سيبويه الأنعام في باب ما لا ينصرف في الأسماء المفردة الواردة على أفعال كقولهم: ثوب أكياش، ولذلك رجع الضمير إليه مفردًا، وأمّا ﴿في بطونها﴾[5] في سورة المؤمنين فلأنّ معناه: الجمع، ويجوز أن يقال في الأنعام وجهان: أحدهما: أن يكون تكثير نعم كأجبال في جبل، وأن يكون اسمًا مفردًا مقتضيًا لمعنى الجمع كنعم فإذا نكر فكما ينكر نعم في قوله:

في كل عام نعم تحرونه ... يلقحه قوم وتنتجونه

وإذا أنث ففيه، وجهان: أنه تكسير نعم وأنه في معنى الجمع. وقرئ: نسقيكم بالفتح والضم وهو استئناف كأنه قيل: كيف العبرة؟ فقيل: نسقيكم ﴿من بين فرث ودم﴾ أي: يخلق الله اللبن وسيطًا بين الفرث والدم يكتنفانه، وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله لا يبغي أحدهما عليه بلون ولا طعم ولا رائحة بل هو خالص من ذلك كله، قيل: إذا أكلت البهيمة العلف فاستقرّ في كرشها طبخته فكان أسفله فرثًا وأوسطه لبنًا وأعلاه دمًا، والكبد مسلطة على هذه الأصناف الثلاثة تقسمها فتجري الدم في العروق، واللبن في الضروع وتبقي الفرث في الكرش فسبحان الله ما أعظم قدرته وألطف حكمته لمن تفكر وتأمّل. وسئل شقيق عن الإخلاص فقال: تمييز العمل من العيوب، كتمييز اللبن من بين فرث ودم ﴿سائغًا﴾ سهل المرور في الحلق ويقال: لم يغص أحد باللبن قط، وقرئ: سيغًا بالتشديد وسيغًا بالتخفيف كهين ولين.

---

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في طاعة أولي الأمر، فصل: في ذكر ما ورد من التشديد في الظلم (الحديث رقم: 7479).

(2) رواه ابن أبي شيبة 1/301، كتاب الزهد، باب: كلام ابن مسعود.

(3) قال أحمد: ونقيض هؤلاء، من إذا أعجبه شيء من ماله، جعله لله، بل إذا أحبّ أمة له، أعتقها، وإذا اشتهى طعاماً قدم إليه، تصدّق به على حبه، وإنما ينقل مثل هذا عن السلف الصالح من الصحابة، = كابن عمر ونظرائه، ومن تابعهم فيها، ويجعلون لله ما يشتهون، اللهم إن لم ننل رتبة أوليائك، فأنلنا محبتهم، فمن أحبّ قوماً حشر معهم.

(4) سورة فصلت، الآية: 50.

(5) سورة المؤمنون، الآية: 21.

فإن قُلْتَ: أي فرق بين من الأولى والثانية؟ **قُلْتُ:** الأولى: للتبعيض؛ لأنّ اللبن بعض ما في بطونها، كقولك: أخذت من مال زيد ثوبًا، والثانية: لابتداء الغاية؛ لأنّ بين الفرث، والدم مكان الإسقاء الذي منه يبتدأ فهو صلة لنسقيكم، كقولك: سقيته من الحوض، ويجوز أن يكون حالاً من قوله: لبنًا مقدّمًا عليه فيتعلق بمحذوف أي: كائنًا من بين فرث ودم، الا ترى انه لو تأخر فقيل: لبنًا من بين فرث ودم كان صفة له وإنما قدّم، لأنه موضع العبرة فهو قمن بالتقديم، وقد احتجّ بعض من يرى أنّ المنيّ طاهر على من جعله نجسًا لجريه في مسلك البول بهذه الآية، وأنه ليس بمستنكر أن يسلك مسلك البول، وهو طاهر كما خرج اللبن من بين فرث ودم طاهرًا.

وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾.

فإن قُلْتَ: بم تعلق قوله: **﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب﴾؟ قُلْتُ:** بمحذوف تقديره ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب أي: من عصيرها وحذف لدلالة نسقيكم قبله عليه، وقوله: **﴿تتخذون منه سكرًا﴾** بيان وكشف عن كنه الإسقاء، أو يتعلق بتتخذون ومنه من تكرير الظرف للتوكيد كقولك: زيد في الدار فيها، ويجوز أن يكون تتخذون صفة موصوف محذوف كقوله: بكفي كان من أرمى البشر، تقديره ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا؛ لأنهم يأكلون بعضها ويتخذون من بعضها السكر.

فإن قُلْتَ: فإلام يرجع الضمير في **﴿منه﴾** إذا جعلته ظرفًا مكرّرًا **قُلْتُ:** إلى المضاف المحذوف الذي هو العصير كما رجع في قوله تعالى: **﴿أو هم قائلون﴾**[1] إلى الأهل المحذوف، والسكر: الخمر، سميت بالمصدر من سكر سكرًا وسكرًا نحو رشد رشدًا ورشدًا قال:

وجاؤنا بهم سكر علينا فاجلى اليوم والسكران صاحي

وفيه وجهان: أحدهما: أن تكون منسوخة وممن قال بنسخها الشعبي والنخعي، والثاني: أن يجمع بين العتاب والمنة، وقيل السكر: النبيذ وهو عصير العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ثم يترك حتى يشتدّ، وهو حلال عند أبي حنيفة إلى حدّ السكر، ويحتج بهذه الآية، وبقوله ﷺ: «الخمر حرام لعينها والسكر من كل شراب»[2]. وبأخبار جمة، ولقد صنف شيخنا أبو علي الجبائي قدّس الله روحه غير كتاب في تحليل النبيذ، فلما شيخ وأخذت منه السنّ العالية قيل له: لو شربت منه ما تتقوى به؟ فأبى، فقيل له: فقد صنفت في تحليله فقال: تناولته الدعارة فسمج في المروءة، وقيل: السكر الطعم وأنشد:

جعلت أعراض الكرام سكرًا

أي: تنقلت بأعراضهم، وقيل: هو من الخمر، وإنه إذا ابترك في أعراض الناس فكأنه تخمر بها. والرزق الحسن الخل والرب والتمر والزبيب وغير ذلك، ويجوز أن يجعل السكر رزقًا حسنًا كأنه قيل: تتخذون منه ما هو سكر ورزق حسن.

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾.

الإيحاء إلى النحل إلهامها والقذف في قلوبها وتعليمها على وجه هو أعلم به لا سبيل لأحد إلى الوقوف عليه، وإلا فنقيتها في صنعتها ولطفها في تدبير أمرها وإصابتها فيما يصلحها دلائل بينة شاهدة على أنّ الله أودعها علمًا بذلك وفطنها كما أولى أولي العقول عقولهم. وقرأ يحيى بن وثاب: إلى النحل بفتحتين وهو منكر كالنخل وتأنيثه على المعنى **﴿أن اتخذي﴾** هي: أن المفسرة؛ لأنّ الإيحاء فيه معنى القول. قرئ: بيوتًا بكسر الباء لأجل الياء، ويعرشون بكسر الراء وضمها يرفعون من سقوف البيوت، وقيل: ما يبنون للنحل في الجبال والشجر والبيوت من الأماكن التي تنغسل فيها، والضمير في يعرشون للناس.

فإن قُلْتَ: ما معنى من في قوله: **﴿أن اتخذي من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومما يعرشون﴾** وهلا قيل في الجبال وفي الشجر؟ **قُلْتُ**[3]: أريد معنى: البعضية، وأن لا تبني بيوتها في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش ولا في كل مكان منها.

ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾.

﴿من كل الثمرات﴾ إحاطة بالثمرات التي تجرسها النحل وتعتاد أكلها أي: ابني البيوت ثم كلي من كل ثمرة تشتهينها فإذا أكلتها **﴿فاسلكي سبل ربك﴾** أي: الطرق، متى ألهمك وأفهمك في عمل العسل، أو فاسلكي ما أكلت في سبل ربك أي: في مسالكه التي يحيل فيها بقدرته النور

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 4.

(2) العقيلي في الضعفاء والنسائي: في السنن الكبرى.

(3) قال أحمد: ويتزين هذا المعنى الذي نبه عليه الزمخشري، في تبعيض من المتعلقة باتخاذ البيوت، بإطلاق الأكل، كأنه تعالى، وكل الأكل إلى شهوتها، واختيارها، لم يحجر عليها فيه، وإن حجر عليها في البيوت وأمرت باتخاذها في بعض المواضع دون بعض؛ = لأنّ مصلحة الأكل حاصلة على الإطلاق باستمراء مشتهاها منه، وأمّا البيوت، فلا تحصل مصلحتها في كل موضع، ولهذا المعنى دخلت، ثم لتفاوت الأمر بين الحجر عليها في اتخاذ البيوت، والإطلاق لها في تناول الثمرات، كما تقول: راع الحلال فيما تأكله، ثم كل أي شيء شئت، فتوسط، ثم لتفاوت الحجر والإطلاق، فسبحان اللطيف الخبير.

المرّ عسلاً من أجوافك ومنافذ مآكلك، أو إذا أكلت الثمار في المواضع البعيدة من بيوتك فاسلكي إلى بيوتك راجعة سبل ربك لا تتوعر عليك ولا تضلين فيها، فقد بلغني أنها ربما أجدب عليها ما حولها فتسافر إلى البلد البعيد في طلب النجعة، أو أراد بقوله: ثم كلي: ثم اقصدي أكل الثمرات فاسلكي في طلبها في مظانها سبل ربك ﴿ذللاً﴾ جمع ذلول وهي حال من السبل؛ لأنّ الله ذللها لها ووطأها وسهلها كقوله: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً﴾[1] أو من الضمير في فاسلكي أي: وأنت ذلل منقادة لما أمرت به غير ممتنعة ﴿شراب﴾ يريد العسل؛ لأنه مما يشرب ﴿مختلف ألوانه﴾ منه أبيض وأسود وأصفر وأحمر ﴿فيه شفاء للناس﴾ لأنه من جملة الأشفية والأدوية المشهورة النافعة، وقل معجون من المعاجين لمن ينكر الأطباء فيه العسل، وليس الغرض أنه شفاء لكل مريض كما أن كل دواء كذلك، وتنكيره إمّا بتعظيم الشفاء الذي فيه، أو لأنّ فيه بعض الشفاء، وكلاهما محتمل، وعن النبي ﷺ: «أنّ رجلاً جاء إليه فقال: إن أخي يشتكي بطنه فقال: اذهب واسقه العسل. فذهب ثم رجع فقال: قد سقيته فما نفع؟ فقال: اذهب واسقه عسلاً، فقد صدق الله وكذب بطن أخيك، فسقاه فشفاه الله فبرأ كأنما أنشط من عقال[2]، وعن عبد الله بن مسعود: العسل شفاء من كل داء، والقرآن شفاء لما في الصدور، فعليكم بالشفاءين القرآن والعسل[3]، ومن بدع تأويلات الرافضة أن المراد بالنحل: عليّ وقومه، وعن بعضهم أنه قال عند المهدي: إنما النحل بنو هاشم يخرج من بطونهم العلم، فقال له رجل: جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطونهم، فضحك المهدي، وحدّث به المنصور فاتخذوه أضحوكة من أضاحيكم.

وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾.

﴿إلى أرذل العمر﴾ إلى أخسه وأحقره وهو خمس وسبعون سنة، وعن عليّ رضي الله عنه: وتسعون سنة، وعن قتادة لأنه لا عمر أسوأ حالاً من عمر الهرم ﴿لكيلا يعلم بعد علم شيئًا﴾ ليصير إلى حالة شبيهة بحال الطفولة في النسيان، وأن يعلم شيئًا ثم يسرع في نسيانه فلا يعلمه إن سئل عنه، وقيل: لئلا يعقل من بعد عقله الأوّل شيئًا، وقيل: لئلا يعلم زيادة علم على علمه أي: جعلكم متفاوتين في الرزق فرزقكم أفضل مما رزق مما ليككم وهم بشر مثلكم وإخوانكم، فكان ينبغي أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم حتى تتساووا في الملبس والمطعم، كما يحكى عن أبي ذر أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إنما هم إخوانكم فاكسوهم مما تلبسون واطعموهم مما تطعمون»[4]. فما رؤي عبده بعد ذلك إلا ورداؤه رداؤه وإزاره إزاره من غير تفاوت[5].

وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾.

﴿أفبنعمة الله يجحدون﴾ فجعل ذلك من جملة جحود النعمة، وقيل: هو مثل ضربه الله للذين جعلوا له شركاء فقال لهم: أنتم لا تسوّون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم، ولا تجعلونهم فيه شركاء، ولا ترضون ذلك لأنفسكم، فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدي لي شركاء؟ وقيل: المعنى أنّ الموالي والمماليك أنا رازقهم جميعًا، فهم في رزقي سواء، فلا تحسبن الموالي أنهم يردون على مماليكهم من عندهم شيئًا من الرزق، فإنما ذلك رزقي أجريه إليهم على أيديهم، وقرئ يجحدون بالتاء والياء.

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾.

﴿مِن أنفسكم﴾ من جنسكم، وقيل: هو خلق حواء من ضلع آدم. والحفدة جمع حافد وهو الذي يحفد أي: يسرع في الطاعة والخدمة ومنه قول القائت.

وإليك نسعى ونحفد

وقال:

حفد الولائد بينهن وأسلمت بأكفهنّ أزمة الأجمال

واختلف فيهم فقيل: هم الأختان على البنات، وقيل: أولاد الأولاد، وقيل: أولاد المرأة من الزوج الأوّل، وقيل: المعنى وجعل لكم حفدة أي: خدمًا يحفدون في مصالحكم ويعينونكم، ويجوز أن يراد بالحفدة: البنون أنفسهم، كقوله: ﴿سكرًا ورزقًا حسنًا﴾[6] كأنه قيل: وجعل لكم منهنّ أولاداً هم بنون وهم حافدون أي: جامعون بين الأمرين ﴿من الطيبات﴾ يريد بعضها؛ لأنّ كل الطيبات في الجنة، وما طيبات الدنيا إلا أنموذج منها ﴿أفبالباطل يؤمنون﴾ وهو ما يعتقدون من منفعة الأصنام وبركتها وشفاعتها، وما هو إلا وهم باطل لم يتوصلوا إليه بدليل ولا أمارة، فليس لهم

---

(1) سورة الملك، الآية: 15.

(2) رواه البخاري، كتاب: الطب، باب: الدواء بالعسل (الحديث رقم: 5684).

(3) رواه ابن ماجه في كتاب: الطب، باب: العسل (الحديث رقم: 3452) والحاكم في المستدرك 4/200.

(4) رواه البخاري في كتاب: العتق، باب: قول النبي ﷺ «العبيد= إخوانكم فاطعموهم مما تأكلون» (الحديث رقم: 2545)، ومسلم في كتاب: الأيمان، باب: إطعام المملوك مما يأكل (الحديث رقم: 4289).

(5) قال الزيلعي: ليس في الحديث وإنما هو من كلام المصنف 2/229.

(6) سورة النحل، الآية: 67.

إيمان لا به كأنه شيء معلوم مستيقن. ونعمة الله: المشاهدة المعاينة التي لا شبهة فيها لذي عقل، وتمييزهم كافرون بها منكرون لها كما ينكر المحال الذي لا يتصوره العقول، وقيل: الباطل ما يسول لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما، ونعمة الله: ما أحل لهم الرزق يكون بمعنى المصدر وبمعنى ما يرزق فإن أردت المصدر نصبت به ﴿شيئًا﴾ كقوله: أو إطعام يتيمًا علي لا يملك أن يرزق شيئًا، وإن أردت المرزوق كان شيئًا بدلاً منه بمعنى قليلاً، ويجوز أن يكون تأكيدًا للا يملك شيئًا من الملك. ومن السمٰوات والأرض صلة للرزق إن كان مصدرًا بمعنى لا يرزق من السمٰوات مطرًا ولا من الأرض نباتًا، أو صفة إن كان اسمًا لما يرزق والضمير في ﴿ولا يستطيعون﴾ لما لأنه في معنى الآلهة بعدما قيل: لا يملك على اللفظ، ويجوز أن يكون للكفار يعني: ولا يستطيع هؤلاء مع أنهم أحياء متصرفون أولو الباب من ذلك شيئًا فكيف بالجماد الذي لا حس به.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: ﴿ولا يستطيعون﴾؟ بعد قوله: ﴿لا يملك﴾ وهل هما إلا شيء واحد؟ **قُلْتُ:** ليس في لا يستطيعون تقدير راجع، وإنما المعنى: لا يملكون أن يرزقوا، والاستطاعة منفية عنهم أصلاً لأنهم موات، إلا أن يقدر الراجع، ويراد بالجمع بين نفي الملك والاستطاعة للتوكيد، أو يراد أنهم لا يملكون الرزق، ولا يمكنهم أن يملكوه، ولا يتأتى ذلك منهم ولا يستقيم.

فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۖ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ

أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾.

﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾[1] تمثيل للإشراك بالله والتشبيه به؛ لأنّ من يضرب الأمثال مشبّه حالاً بحال وقصة بقصة ﴿إنّ الله يعلم﴾ كنه ما تفعلون وعظمه وهو معاقبكم عليه بما يوازيه في العظم؛ لأنّ العقاب على مقدار الإثم ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ كنهه وكنه عقابه، فذاك هو الذي جركم إليه وجراكم عليه، فهو تعليل للنهي عن الشرك، ويجوز أن يراد: فلا تضربوا لله الأمثال، إنّ الله يعلم كيف يضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون. ثم علمهم كيف تضرب فقال: مثلكم في إشراككم بالله الأوثان من سوّى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين حرماً لك قد رزقه الله مالاً فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف شاء.

فإن قُلْتَ[2]: لم قال ﴿مملوكًا لا يقدر على شيء﴾ وكل عبد مملوك وغير قادر على التصرف **قُلْتُ:** أما ذكر المملوك فليميز من الحر؛ لأن اسم العبد يقع عليهما جميعًا؛ لأنهما من عباد الله، وأما لا يقدر على شيء فليجعل غير مكاتب، ولا مأذون له؛ لأنهما يقدران على التصرف، واختلفوا في العبد هل يصح له ملك؟ والمذهب الظاهر أنه لا يصحّ له.

فإن قُلْتَ: من في قوله: ﴿ومن رزقناه﴾ ما هي؟ **قُلْتُ:** الظاهر أنها موصوفة كأنه قيل: وحرًا رزقناه ليطابق عبدًا، ولا يمتنع أن تكون موصولة.

فإن قُلْتَ: لم قيل ﴿يستوون﴾ على الجمع؟ **قُلْتُ:** معناه:

---

(1) قال أحمد: فعلى تفسيره الأوّل يكون قوله لله متعلقاً بالأمثال، كأنه قيل: فلا تمثلوا الله، ولا تشبهوه، وعلى الثاني يكون متعلقاً بالفعل الذي هو تضربوا، كأنه قيل: فلا تمثلوا الله الأمثال، فإن ضرب المثل، إنما يستعمل من العالم لغير العالم، ليبين له ما خفي عنه، والله تعالى هو العالم، وأنتم لا تعلمون، فتمثيل غير العالم للعالم عكس الحقيقة، والله أعلم.

(2) قال أحمد: والقول بصحة ملكه هو مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وفي هذه الآية له معتصم؛ لأنّ الله تعالى مثل بالمملوك؛ لأنه مظنة العجز وعدم الملك والتصرف غالباً، ثم أفصح عن المعنى المقصود، وهو: أنّ هذا المملوك ليس بمن اتفق أن ملكه سيده، فملك وقدر، بل هو على الأصل المعهود في المماليك، عاجز غير قادر، ولو لم يكن ملك العبد متصوراً ومعهوداً شرعاً وعرفاً، لكان قوله تعالى لا يقدر على شيء، كالتكرار لما فهم من قوله عبداً مملوكاً، وقول القائل، يقول: إنه احتراز من الكاتب بعيد من فصاحة القرآن، فإنه لو كان العبد لا يصح منه ملك البتة، إلا في حال الكتابة، لكانت إرادته حينئذ من إطلاق اللفظ، كالإلغاز الذي لا يعهد مثله في بيان القرآن، واستيلائه على صنوف البلاغة، ومثل هذا أنكره الإمام أبو المعالي على من حمل قوله عليه السلام: «أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها» على المكاتبة، لبعد القصد إليها على شذوذها، وأما الاحتراز به عن المأذون له، = فينبني على القول بأن المراد بعدم القدرة: عدم المكنة من التصرف، وإن لم يكن المأذون له مالكاً عند هذا القائل، وهذا بعيد عن مطابقة قوله: ﴿ومن رزقناه منا رزقاً حسناً﴾ فإنها توجب إن يكون المراد بقوله لا يقدر على شيء: لا يملك شيئاً من الرزق، كما تقول في الحر المفلس: فلان لا يقدر على شيء، أي: لا يملك شيئاً يقدر على التصرف فيه، فلخص من هذا البحث أن في الآية مجالاً لنصرة مذهب مالك، وإن كان لقائل أن يقول هذه الصفة لازمة، كالإيضاح لفائدة ضرب المثل بالمملوك، كأنه قيل وإنما ضربنا المثل بالمملوك؛ لأن صفته اللازمه له وسمته المعروفة به، أنه لا يقدر على شيء، أي: لا يصح منه ملك، وكثيراً ما يجيء الحال والصفة، لا يقصد بواحد منهما تقييد ولا تخصيص، ولكن إيضاح وتفسير، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به﴾ فقوله: ﴿لا برهان له به﴾ لا يقصد به تمييز له سوى الله من إله لأن كل مدعو إلهاً غير الله تعالى لا برهان به، وإنما أريد أن عدم البرهان من لوازم دعاء إله غير الله تعالى، فهذا أقصى ما يكن أن ينتصر به للقائل بعدم صحة ملك العبد، ولنا أن نقول في دفعة، أن الأصل في الصفة والحال وشبههما التخصيص والتقيد، وأما الوارد من ذلك لازماً، فنادر على خلاف الأصل، والله الموفق.

هل يستوي الأحرار والعبيد.

الأبكم الذي ولد أخرس فلا يفهم ولا يفهم ﴿وهو كلّ على مولاه﴾ أي: ثقل وعيال على من يلي أمره ويعوله ﴿أينما يوجهه﴾ حيثما يرسله ويصرفه في مطلب حاجة أو كفاية مهم، لا ينفع ولم يات بنجح ﴿هل يستوي هو ومن﴾ هو سليم الحراس نفاعًا نو كفايات مع رشد وديانة فهو ﴿يامر﴾ الناس ﴿بالعدل﴾ والخير ﴿وهو﴾ في نفسه ﴿على صراط مستقيم﴾ على سيرة صالحة ودين قويم، وهذا مثل ثان ضربه الله لنفسه، ولما يفيض على عباده ويشملهم من آثار رحمته ولطافه ونعمه الدينية والدنيوية، وللأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع. وقرئ: أينما يوجهه بمعنى: أينما يتوجه من قولهم: أينما أوجه الق سعدًا، وقرأ ابن مسعود: أينما يوجه على البناء للمفعول.

وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾.

﴿ولله غيب السمٰوات والأرض﴾ أي: يختصّ به علم ما غاب فيهما عن العباد، وخفي عليهم علمه، أو أراد بغيب السمٰوات والأرض يوم القيامة، على أن علمه غائب عن أهل السمٰوات والأرض لم يطلع عليه أحد منهم ﴿إلا كلمح البصر أو هو أقرب﴾ أي: هو عند الله وإن تراخى كما تقولون انتم في الشيء الذي تستقربونه: هو كلمح البصر، أو هو أقرب إذا بالغتم في استقرابه، ونحوه قوله: ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يومًا عند ربك كالف سنة مما تعدون﴾[1] اي: هو عنده دان وهو عندكم بعيد، وقيل المعنى: أن إقامة الساعة، وإماتة الأحياء، وإحياء الأموات من الأولين والآخرين، يكون في أقرب وقت وأوحاه. ﴿إنّ الله على كل شيء قدير﴾ فهو يقدر على أن يقيم الساعة ويبعث الخلق لأنه بعض المقدورات، ثم دلّ على قدرته بما بعده.

وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾.

قرئ: أمهاتكم بضم الهمزة وكسرها والهاء مزيدة في أمات كما زيدت في أراق فقيل: أهراق وشذت زيادتها في الواحدة قال:

أمهتي خندف وإلياس أبي

﴿لا تعلمون شيئًا﴾ في موضع الحال، ومعناه: غير عالمين شيئًا من حق المنعم الذي خلقكم في البطون وسواكم وصوركم ثم أخرجكم من الضيق إلى السعة، وقوله: ﴿وجعل لكم﴾ معناه: وما ركب فيكم هذه الأشياء إلا آلات لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه، واجتلاب العلم والعمل به من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه، والترقي إلى ما يسعدكم. والأفئدة في فؤاد كالأغربة في غراب وهو من جموع القلة التي جرت مجرى جموع الكثرة، والقلة إذا لم يرد في السماع غيرها، كما جاء شسوع في جمع شسع لا غير فجرت ذلك المجرى.

قرئ: ألم يروا بالتاء والياء ﴿مسخرات﴾ مذللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المتواتية لذلك، والجوّ: الهواء المتباعد من الأرض في سمت العلوّ، والسكاك أبعد منه، واللوح مثله ﴿ما يمسكهنّ﴾ في قبضهن وبسطهن ووقوفهن ﴿إلا الله﴾ بقدرته.

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾.

﴿من بيوتكم﴾ التي تسكنونها من الحجر والمدر والأخبية وغيرها. والسكن فعل بمعنى: مفعول، وهو: ما يسكن إليه وينقطع من بيت أو ألف ﴿بيوتًا﴾ هي: القباب والأبنية من الأدم والأنطاع ﴿تستخفونها﴾ ترونها خفيفة المحمل في الضرب والنقض والنقل ﴿يوم ظعنكم ويوم إقامتكم﴾[2] أي: يوم ترحلون خف عليكم حملها ونقلها، ويوم تنزلون، وتقيمون في مكان لم يثقل عليكم ضربها، أو هي خفيفة عليكم في أوقات السفر والحضر جميعًا على أنّ اليوم بمعنى: الوقت ﴿ومتاعًا﴾ وشيئًا ينتفع به ﴿إلى حين﴾ إلى أن تقضوا منه أوطاركم، أو إلى أن يبلى ويفنى، أو إلى أن تموتوا. وقرئ: يوم ظعنكم بالسكون.

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾.

﴿مما خلق﴾ من الشجر وسائر المستظلات ﴿أكنانًا﴾ جمع كن، وهو: ما يستكن به من البيوت المنحوتة في الجبال، والغيران، والكهوف ﴿سرابيل﴾ هي القمصان[3] والثياب من الصوف والكتان والقطن وغيرها ﴿تقيكم الحرّ﴾ لم يذكر البرد؛ لأنّ الوقاية من الحرّ أهمّ عندهم، وقلما يهمهم البرد لكونه يسيرًا محتملاً، وقيل[4]: ما بقي من الحرّ بقي من البرد، فدل ذكر الحرّ على البرد

---

(1) سورة الحج، الآية: 47.

(2) قال أحمد: والتفسير الأوّل أولى؛ لأنّ ظهور المنة في خفتها، إنما يتحقق في حال السفر، وأمّا المستوطن؛ فغير مثقل، وما أحسن قول الزمخشري في يوم إقامتكم، أنّ المراد: خفة ضربها، وسهولة ذلك عليهم، والله أعلم.

(3) قال أحمد: يعني عند العرب، وخصوصاً قطان الحجاز، وهم الأصل في هذا الخطاب.

(4) قال أحمد: والأوّل أظهر، ألا ترى إلى تقديم المنة بالظلال التي تقي من الضحا، في قوله تعالى: ﴿جعل لكم مما خلق ظلالاً﴾ فدل على أنّ الأهمّ عند المخاطبين وقاية الحرّ، فامتن الله عليهم بأعظم =

﴿وسرابيل تقيكم بأسكم﴾ يريد الدروع والجواشن، والسربال عامّ يقع على كل ما كان من حديد وغيره ﴿لعلكم تسلمون﴾ أي: تنظرون في نعمه الفائضة فتؤمنون به وتنقادون له، وقرئ*: تسلمون من السلامة أي: تشكرون فتسلمون من العذاب، أو تسلم قلوبكم من الشرك، وقيل: تسلمون من الجراح بلبس الدروع.

فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾.

﴿فإن تولوا﴾ فلم يقبلوا منك، فقد تمهد عذرك بعد ما أديت ما وجب عليك من التبليغ، فنكر سبب العذر وهو: البلاغ ليدل على المسبب.

﴿يعرفون نعمت الله﴾ التي عددناها حيث يعترفون بها وأنها من الله ﴿ثم ينكرونها﴾ بعبادتهم غير المنعم بها وقولهم هي من الله ولكنها بشفاعة آلهتنا، وقيل: إنكارهم قولهم: ورثناها من آبائنا، وقيل: قولهم لولا فلان ما أصبت كذا لبعض نعم الله، وإنما لا يجوز التكلم بنحو هذا إذا لم يعتقد أنها من الله وأنه أجراها على يد فلان وجعله سببًا في نيلها ﴿وأكثرهم الكافرون﴾ أي: الجاحدون غير المعترفين، وقيل: نعمة الله نبوّة محمد عليه السلام كانوا يعرفونها ثم ينكرونها عنادًا، وأكثرهم الجاحدون المنكرون بقلوبهم

فإن قُلْتَ: ما معنى ﴿ثم﴾؟ **قُلْتُ:** الدلالة على أن إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة؛ لأنّ حق من عرف النعمة أن يعترف لا أن ينكر.

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾.

﴿شهيدًا﴾ نبيًا يشهد لهم وعليهم بالإيمان والتصديق والكفر والتكذيب ﴿ثم لا يؤذن للذين كفروا﴾ في الاعتذار، والمعنى: لا حجة لهم، فدل بترك الإذن على أن لا حجة لهم ولا عذر وكذا عن الحسن ﴿ولا هم يستعتبون﴾ ولا هم يسترضون أي: لا يقال لهم أرضوا ربكم؛ لأنّ الآخرة ليست بدار عمل.

فإن قُلْتَ: فما معنى ﴿ثم﴾ هذه؟ **قُلْتُ:** معناها: أنهم يمنون بعد شهادة الأنبياء بما هو أطم منها وهو: أنهم يمنعون الكلام فلا يؤذنون لهم في إلقاء معذرة، ولا إدلاء بحجة. وانتصاب اليوم بمحذوف تقديره واذكر يوم نبعث، أو يوم نبعث وقعوا فيما وقعوا فيه، وكذلك إذا رأوا العذاب بغتهم وثقل عليهم ﴿فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون﴾ كقوله: ﴿بل تأتيهم بغتة فتبهتهم﴾[1] الآية.

وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾.

إن أرادوا بالشركاء آلهتهم فمعنى ﴿شركاؤنا﴾ آلهتنا التي دعوناها شركاء، وإن أرادوا الشياطين؛ فلأنهم شركاؤهم في الكفر وقرناؤهم في الغي و ﴿ندعوا﴾ بمعنى: نعبد.

فإن قُلْتَ: لم قالوا ﴿إنكم لكاذبون﴾ وكانوا يعبدونهم على الصحة؟ **قُلْتُ:** لما كانوا غير راضين بعبادتهم فكان عبادتهم لم تكن عبادة والدليل عليه قوله الملائكة: ﴿كانوا يعبدون الجن﴾ يعنون: أن الجن راضيين بعبادتهم لا نحن فهم المعبودون دوننا، أو كذبوهم في تسميتهم شركاء وآلهة تنزيهًا لله من الشريك، وإن أريد بالشركاء الشياطين جاز أن يكون كاذبين في قولهم: إنكم لكاذبون كما يقول الشيطان: ﴿إني كفرت بما أشركتموني من قبل﴾[2].

وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾.

﴿وألقوا﴾ يعني: الذين ظلموا، وإلقاء السلم: الاستسلام لأمر الله وحكمه بعد الإباء والاستكبار في الدنيا ﴿وضل عنهم﴾ وبطل عنهم ﴿ما كانوا يفترون﴾ من الله شركاء وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كذبوهم وتبرؤا منهم.

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾.

﴿الذين كفروا﴾ في أنفسهم. وحملوا غيرهم على الكفر. يضاعف الله عقابهم كما ضاعفوا كفرهم، وقيل: في زيادة عذابهم حيات أمثال البخت وعقارب أمثال البغال تلسع إحداهن اللسعة فيجد صاحبها حمتها أربعين خريفًا، وقيل: يخرجون من النار إلى الزمهرير فيبادرون من شدة برده إلى النار ﴿بما كانوا يفسدون﴾ بكونهم مفسدين الناس بصدهم عن سبيل الله.

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾.

﴿شهيدًا عليهم من أنفسهم﴾ يعني: نبيهم؛ لأنه كان يبعث أنبياء الأمم فيهم منهم ﴿وجئنا بك﴾ يا محمد

= نعمه موقعاً عندهم، وقول القائل: إنّ ما بقي الحرّ بقي البرد، مشهود عليه بالعرف، فإنّ الذي يتقي به الحرّ من القمصان، رقيقها ورفيعها، وليس ذلك من لبوس البرد؛ بل لو لبس الإنسان في كل واحد من الفصلين، القيظ والبرد، لباس الآخر، يعدّ من الثقلاء.

(1) سورة الأنبياء، الآية: 40.

(2) سورة سبأ، الآية: 41.

﴿شهيدًا على هؤلاء﴾ على أمتك ﴿تبيانًا﴾ بيانًا بليغًا، ونظير تبيان تلقاء في كسر أوله، وقد جوّز الزجاج فتحه في غير القرآن.

فإن قُلْتَ: كيف كان القرآن تبيانًا ﴿لكل شيء﴾؟ **قُلْتُ:** المعنى أنه بين كل شيء من أمور الدين حيث كان نصًا على بعضها وإحالة على السنة حيث أمر فيه باتباع رسول الله ﷺ وطاعته، وقيل: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾[1] وحثًا على الإجماع في قوله: ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾[2] وقد رضي رسول الله ﷺ لأمته اتباع أصحابه والاقتداء بآثارهم في قوله ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»[3]. وقد اجتهدوا وقاسوا ووطؤا طرق القياس والاجتهاد فكانت السنة والإجماع والقياس والاجتهاد مستندة إلى تبيان الكتاب، فمن ثم كان تبيانًا لكل شيء[4].

❁ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾.

العدل[5] هو الواجب؛ لأنّ الله تعالى عدل فيه على عباده[6] فجعل ما فرضه عليهم واقعًا تحت طاقتهم ﴿والإحسان﴾ الندب، وإنما علق أمره بهما جميعًا؛ لأنّ الفرض لا بدّ من أن يقع فيه تفريط فيجبره الندب[7]، ولذلك قال رسول الله ﷺ لمن علمه الفرائض فقال: والله لا زدت فيها ولا نقصت: «أفلح إن صدق»[8] فعقد الفلاح بشرط الصدق والسلامة من التفريط، وقال ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا»[9]. فما ينبغي أن يترك ما يجبر كسر التفريط من النوافل. والفواحش[10] ما جاوز حدود الله ﴿والمنكر﴾ ما تنكره العقول ﴿والبغي﴾[11] طلب التطاول بالظلم. وحين[12] أسقطت من الخطب لعنة الملاعين على أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه أقيمت هذه الآية مقامها، ولعمري أنها كانت فاحشة ومنكرًا وبغيًا ضاعف الله لمن سنها غضبًا ونكالاً ومخزياً إجابة لدعوة نبيه وعادي من عاداه[13]، وكانت سبب إسلام عثمان بن مظعون.

وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾.

عهد الله هي البيعة لرسول الله ﷺ على الإسلام: ﴿إنّ الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾[14] ﴿ولا تنقضوا﴾ أيمان البيعة ﴿بعد توكيدها﴾ أي: بعد توثيقها باسم الله، وأكد وواكد لغتان فصيحتان والأصل الواو والهمزة بدل ﴿كفيلاً﴾ شاهدًا ورقيبًا؛ لأنّ الكفيل مراع لحال المكفول به مهيمن عليه ﴿ولا تكونوا﴾ في نقض الأيمان كالمرأة التي أنحت على غزلها بعد أن أحكمته وأبرمته فجعلته ﴿انكاثًا﴾ جمع نكث وهو ما ينكث فتله قيل: هي ريطة بنت سعد بن تيم. وكانت خرقاء اتخذت مغزلاً قدر ذراع وصنارة مثل أصبع وفلكة عظيمة على قدرها، فكانت تغزل هي وجواريها من الغداة إلى الظهر، ثم تأمرهنّ فينقضن ما غزلن ﴿تتخذون﴾ حال و ﴿دخلاً﴾ أحد مفعولي اتخذ يعني: ولا

---

(1) سورة إبراهيم، الآية: 22.

(2) سورة النجم، الآية: 3.

(3) سورة النساء، الآية: 115.

(4) رواه البيهقي في المدخل والدارقطني في غرائب مالك وفي المؤتلف والمختلف (الزيلعي 2/229 ـ 231).

(5) قال أحمد: وفي جعلهما تحت الأمر، ما يدل لمن قال: إن صيغة الأمر، أعني هذه المبنية من الهمزة، والميم، والراء، لا صيغة أفعل تتناول القبيلين بطريق التواطؤ، وموضعها القدر المشترك بينهما من الطلب، والله أعلم.

(6) قال أحمد: وهذه وليجة من الاعتزال، ومعتقد المعتزلة استحالة تكليف ما لا يطاق؛ لأنه ظلم وجور، وذلك على الله محال، والحق السنة أن كل قضاء الله عدل، وأن تكليف ما لا يطاق جائز عليه، وعدل منه، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، بل التكاليف كلها على خلاف الاستطاعة، على مقتضى توحيد أهل السنة، المعتقدين أن كل موجود بقدرة الله تعالى حدث ووجد، لا شريك له في ملكه، وكيف يكون شريكه عبداً مسخراً في قبضة ملكه، هذا هو التوحيد المحض، وإذا كان العبد مكلفاً بما هو من فعل الله، فهذا عين التكليف بما لا يطاق، ولكن ذلك عدل من الله تعالى، وحجته البالغة قائمة لي الكلف بما خلقه له من التأني والتيسر في الأفعال الاختيارية، التي هي محال التكاليف، والله الموفق.

(7) قال أحمد: وهذه نكتة حسنة، يجاب بها عن قول القائل: لم حكم عليه الصلاة والسلام، بفلاح المصرّ على ترك السنن، فيقال:= المحكوم بفلاحه لأجله، إنما هو الصدق في سلامة الفرائض من خلل النقص والزيادة، والله أعلم.

(8) رواه البخاري في كتاب: الصوم، باب: وجوب صوم رمضان (الحديث رقم: 1891) ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام (الحديث رقم: 100).

(9) رواه ابن ماجه في كتاب: الطهارة وسننها باب المحافظة على الوضوء (الحديث رقم: 277) وأحمد في مسنده 5/277، والحاكم في المستدرك 1/130.

(10) قال أحمد: وهذه أيضاً لفتة إلى الاعتزال، ولو قال: والمنكر ما أنكره الشرع، لوافق الحق، ولكنه لا يدع بدعة المعتزلة في التحسين والتقبيح بالعقل، والله الموفق.

(11) قال أحمد: وأصل موضوعه الطلب، ومنه ابتغاء وجه الله، ابتغاء مرضاة الله، ولكن صار مطلقه خاصاً بطلب الظلم عرفاً.

(12) قال أحمد: ولعل المعوض بهذه الآية عن تلك الهناة لاحظ التطبيق بين نكر النهي عن البغي فيها، وبين الحديث الوارد في أن المناصب لعليّ باغ، حيث يقول عليه الصلاة والسلام لعمار وكان من حزب علي: «تقتلك الفئة الباغية»، والله أعلم، فقتل مع عليّ يوم صفين.

(13) رواه الحاكم في المستدرك 3/190 وأخرجه ابن حبان في كتاب: أخباره ﷺ عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم (الحديث رقم: 653).

(14) سورة الفتح، الآية: 10.

تنقضوا أيمانكم متخنيها دخلاً ﴿بينكم﴾ أي: مفسدة ودغلاً ﴿أن تكون أمّة﴾ بسبب أن تكون أمّة يعني: جماعة قريش ﴿هي أربى من أمّة﴾ هي: أزيد عددًا وأوفر مالاً من أمّة من جماعة المؤمنين ﴿إنما يبلوكم الله به﴾ الضمير لقوله: ﴿أن تكون أمّة﴾ لأنه في معنى: المصدر أي: إنما يختبركم بكونهم أربى لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما عقدتم على أنفسكم ووكدتم من أيمان البيعة لرسول الله ﷺ، أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم وقوّتهم وقلة المؤمنين وفقرهم وضعفهم ﴿وليبيننّ لكم﴾ إنذار وتحذير من مخالفة ملة الإسلام.

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾.

﴿ولو شاء الله لجعلكم أمّة واحدة﴾[1] حنيفة مسلمة على طريق الإلجاء والاضطرار وهو قادر على ذلك ﴿ولكن﴾ الحكمة اقتضت أن يضلّ ﴿من يشاء﴾ وهو أن يخذل من علم أنه يختار الكفر ويصمم عليه ﴿ويهدي من يشاء﴾[2] وهو أن يلطف بمن علم أنه يختار الإيمان يعني: أنه بنى الأمر على الاختيار وعلى ما يستحق به اللطف والخذلان والثواب والعقاب، ولم يبنه على الإجبار الذي لا يستحق به شيء من ذلك وحققه بقوله: ﴿ولتسئلنّ عما كنتم تعملون﴾ ولو كان هو المضطرّ إلى الضلال والاهتداء لما أثبت لهم عملاً يسئلون عنه.

وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾.

ثم كرّر النهي عن اتخاذ الأيمان دخلاً بينهم تأكيدًا عليهم وإظهارًا لعظم ما يركب منه ﴿فتزلّ قدم بعد ثبوتها﴾ فتزلّ أقدامكم عن محجة الإسلام بعد ثبوتها ﴿وتذوقوا السوء﴾ في الدنيا بصدودكم ﴿عن سبيل الله﴾ وخروجكم من الدين، أو بصدّكم غيركم؛ لأنهم لو نقضوا أيمان البيعة وارتدّوا لاتخذوا نقضها سنة لغيرهم يستنون بها ﴿ولكم عذاب عظيم﴾ في الآخرة.

كان قومًا ممن أسلم بمكة زين لهم الشيطان لجزعهم مما رأوا من غلبة قريش واستضعافهم المسلمين وإيذائهم لهم، ولما كانوا يعدّونهم إن رجعوا من المواعيد أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله ﷺ، فثبتهم الله ﴿ولا تشتروا﴾ ولا تستبدلوا ﴿بعهد الله﴾ وبيعة رسول الله ﷺ ﴿ثمنًا قليلاً﴾ عرضًا من الدنيا يسيرًا وهو: ما كانت قريش يعدونهم ويمنونهم إن رجعوا ﴿إنما عند الله﴾ من إظهاركم وتغنيمكم ومن ثواب الآخرة ﴿خير لكم... ما عندكم﴾ من أعراض الدنيا ﴿ينفد وما عند الله﴾ من خزائن رحمته ﴿باق﴾ لا ينفد. وقرئ: ليجزينّ بالنون والياء ﴿الذين صبروا﴾ على أذى المشركين ومشاقّ الإسلام.

فإن قُلْتَ[3]: لم وحدت القدم ونكرت؟ **قُلْتُ**: لاستعظام أن تزلّ قدم واحدة عن طريق الحق بعد أن ثبتت عليه فكيف بأقدام كثيرة.

فإن قُلْتَ: ﴿من﴾ متناول في نفسه للذكر والأنثى فما معنى تبيينه بهما؟ **قُلْتُ**: هو مبهم صالح على الإطلاق للنوعين، إلا أنه إذا ذكر كان الظاهر تناوله الذكور فقيل ﴿من ذكر أو أنثى﴾ على التبيين ليعمّ الموعد النوعين جميعًا ﴿حياة طيبة﴾ يعني: في الدنيا وهو الظاهر لقوله ﴿ولنجزينهم﴾ وعده الله ثواب الدنيا والآخرة كقوله: ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة﴾[4] وذلك أن المؤمن مع العمل الصالح موسرًا كان أو معسرًا يعيش عيشًا طيبًا، إن كان موسرًا فلا مقال فيه وإن كان معسرًا فمعه ما يطيب عيشه وهو القناعة والرضا بقسمة الله، وأمّا الفاجر فأمره على العكس إن كان معسرًا فلا إشكال في أمره وإن كان موسرًا فالحرص لا يدعه أن يتهنا بعيشه، وعن ابن عباس رضي الله عنه: الحياة الطيبة الرزق الحلال، وعن الحسن: القناعة، وعن قتادة: يعني: في الجنة، وقيل: هي حلاوة الطاعة والتوفيق في قلبه.

فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾.

---

(1) قال أحمد: وهذا تفسير اعتزالي قد قدّم أمثاله في أخوات هذه الآية، وغرضه الفرار من الحق المستفاد من تعليق المشيئة بلو، الدالة على أنّ مشيئة الله تعالى لإيمان الخلق كلهم ما وقعت، وأنه إنما شاء منهم الافتراق والاختلاف، فإيمان وكفر، وتصديق وتكذيب، كما وقع منهم، ولو شاء شمولهم بالإيمان لوقع، فيصادم الزمخشري هذا النصّ، ويقول: قد شاء جعلهم أمّة واحدة حنيفة مسلمة، ولكن لم يقع مراده، فإذا قبل له، فعلام تحمل المشيئة في الآية. قال: على مشيئة إيمانهم، قسراً لا اختياراً، وهذه المشيئة لم تقع اتفاقاً.

(2) قال أحمد: أمّا أهل السنة، يسميهم المصنف مجبرة، فهم من الإجبار بمعزل؛ لأنهم يثبتون للعبد قدرة واختياراً وأفعالاً، = وهم مع ذلك يوحدون الله حقّ توحيده، فيجعلونقدرته تعالى في الموجدة والمؤثرة، وقدرة العبد مقارنة فحسب تمييزاً بين الاختياري والقسري، وتقوم به حجة الله على عبده، والله الموفق.

(3) قال أحمد: ومن جنس إفادة التنكير ههنا للتقليل، إفادته له في قوله تعالى: ﴿وتعيها أذن واعية﴾ وفي قوله عز وجل: ﴿اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدّمت لغد﴾ فنكر الإذن والنفس تقليلاً للواعي من الناس، لما يقضي بسداده، وللناظر من الخلق في أمر معاده، والله الموفق.

(4) سورة آل عمران، الآية: 148.

لما ذكر العمل الصالح ووعد عليه وصل به قوله: ﴿**فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله**﴾ إيذانًا بأن الاستعاذة من جملة الأعمال الصالحة التي يجزل الله عليها الثواب، والمعنى: فإذا أردت قراءة القرآن فاستعذ، كقوله: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم﴾[1] وكقولك: إذا أكلت فسمّ الله.

فإن قُلْتَ: لم عبر عن إرادة الفعل بلفظ الفعل؟ **قُلْتُ:** لأن الفعل يوجد عند القصد والإرادة بغير فاصل وعلى حسبه فكان منه بسبب قويّ وملابسة ظاهرة، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قرأت على رسول الله ﷺ فقلت: أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم، فقال لي: «يا ابن أمّ عبد قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أقرأنيه جبريل عليه السلام عن القلم عن اللوح المحفوظ»[2].

إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾.

﴿**ليس له سلطان**﴾ أي: تسلط وولاية على أولياء الله يعني: أنهم لا يقبلون منه ولا يطيعونه فيما يريد منهم من اتباع خطواته ﴿**إنما سلطانه**﴾ على من يتولاه ويطيعه ﴿**به مشركون**﴾ الضمير يرجع إلى ربهم، ويجوز أن يرجع إلى الشيطان على معنى بسببه وغروره ووسوسته.

وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾.

تبديل الآية مكان الآية هو النسخ، والله تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع لأنها مصالح، وما كان مصلحة أمس يجوز أن يكون مفسدة اليوم وخلافه مصلحة. والله تعالى عالم بالمصالح والمفاسد فيثبت ما يشاء وينسخ ما يشاء بحكمته وهذا معنى قوله: ﴿**والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر**﴾ وجدوا مدخلاً للطعن فطعنوا وذلك لجهلهم وبعدهم عن العلم بالناسخ والمنسوخ وكانوا يقولون: إن محمدًا يسخر من أصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدًا فيأتيهم بما هو أهون، ولقد افتروا، فقد كان ينسخ الأشق بالأهون والأهون بالأشق والأهون بالأهون والأشق بالأشق؛ لأنّ الغرض المصلحة لا الهوان والمشقة.

فإن قُلْتَ: هل في نكر تبديل الآية بالآية دليل على أن القرآن إنما ينسخ بمثله ولا يصح بغيره من السنة والإجماع والقياس؟ **قُلْتُ:** فيه إنّ قرآنًا ينسخ بمثله وليس فيه نفي نسخه بغيره، على أن السنة المكشوفة المتواترة مثل القرآن في إيجاب العلم، فنسخه بها كنسخه بمثله، وأمّا الإجماع والقياس والسنة غير المقطوع بها فلا يصح نسخ القرآن بها. في ينزل ونزله وما فيهما من التنزيل شيئًا فشيئًا على حسب الحوادث والمصالح، إشارة إلى أن التبديل من باب المصالح كالتنزيل، وإن ترك النسخ بمنزلة إنزاله دفعة واحدة في خروجه عن الحكمة و﴿**روح القدس**﴾ جبريل عليه السلام أضيف إلى القدس وهو الطهر كما يقال: حاتم الجود، وزيد الخير، والمراد: الروح المقدّس، وحاتم الجود، وزيد الخير، والمقدّس: المطهر من المآثم، وقرئ*: بضم الدال وسكونها ﴿**بالحق**﴾ في موضع الحال أي: نزله ملتبسًا بالحكمة يعني: أن النسخ من جملة الحق ﴿**ليثبت الذين آمنوا**﴾ ليبلوهم بالنسخ حتى إذا قالوا فيه: هو الحق من ربنا، والحكمة حكم لهم بثبات القدم وصحة اليقين وطمأنينة القلوب، على أن الله حكيم فلا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب ﴿**وهدى وبشرى**﴾ مفعول لهما معطوفان على محل ليثبت، والتقدير: تثبيتًا لهم وإرشادًا وبشارة فيه تعريض بحصول أضداد هذه الخصال لغيرهم، وقرئ*: ليثبت بالتخفيف.

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾.

أرادوا بالبشر غلامًا كان لخويطب بن عبد العزى قد أسلم وحسن إسلامه اسمه: عائش أو يعيش، وكان صاحب كتب، وقيل: هو جبر غلام رومي كان لعامر بن الحضرمي، وقيل: عبدان جبر ويسار كانا يصنعان السيوف بمكة، ويقرآن التوراة والإنجيل، فكان رسول الله ﷺ إذا مرّ وقف عليهما ما يسمع ما يقرآن، فقالوا: يعلمانه، فقيل لأحدهما فقال: بل هو يعلمني، وقيل: هو سلمان الفارسي. واللسان اللغة. ويقال: ألحد القبر ولحده وهو ملحد ملحود: إذا أمال حفره عن الاستقامة فحفر في شق منه، ثم استعير لكل إمالة عن الاستقامة فقالوا: ألحد فلان في قوله، وألحد في دينه، ومنه الملحد لأنه أمال مذهبه عن الأديان كلها لم يمله عن دين إلى دين، والمعنى: لسان الرجل الذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه لسان ﴿**أعجمي**﴾ غير بيّن ﴿**وهذا**﴾ القرآن ﴿**لسان عربي مبين**﴾ ذو بيان وفصاحة ردًا لقولهم وإبطالاً لطعنهم. وقرئ*: يلحدون بفتح الياء والحاء وفي قراءة الحسن: اللسان الذي يلحدون إليه بتعريف اللسان.

فإن قُلْتَ: الجملة التي هي قوله: ﴿**لسان الذي يلحدون إليه أعجمي**﴾ ما محلها؟ **قُلْتُ:** لا محل لها لأنها مستأنفة جواب لقولهم، ومثله قوله: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾[3] بعد قوله: ﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسل الله﴾[4].

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ

(1) سورة المائدة، الآية: 6.
(2) ذكره الثعلبي في تفسيره، الواحدي في الوسيط (الزيلعي 2/245).
(3) سورة الأنعام، الآية: 124.
(4) سورة الأنعام، الآية: 124.

أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾.

﴿إنّ الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ أي: يعلم الله منهم أنهم لا يؤمنون **﴿لا يهديهم الله﴾** لا يلطف بهم؛ لأنهم من أهل الخذلان في الدنيا والعذاب في الآخرة لا من أهل اللطف والثواب.

إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾.

﴿إنما يفتري الكذب﴾ ردّ لقولهم: **﴿إنما أنت مفتر﴾**[1] يعني: إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن؛ لأنه لا يترقب عقابًا عليه **﴿وأولئك﴾** إشارة إلى قريش **﴿هم الكاذبون﴾** أي: هم الذين لا يؤمنون فهم الكاذبون، أو إلى الذين لا يؤمنون أي: أولئك هم الكاذبون على الحقيقة الكاملون في الكذب؛ لأنّ تكذيب آيات الله أعظم الكذب، أو أولئك هم الذين عادتهم الكذب لا يبالون به في كل شيء، لا تحجبهم عنه مروءة ولا دين، أو أولئك هم الكاذبون في قلهم: **﴿إنما أنت مفتر﴾**[2] **﴿من كفر﴾** بدل من: **﴿الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾** على أن يجعل **﴿وأولئك هم الكاذبون﴾** اعتراضًا بين البدل والمبدل منه والمعنى: إنما يفتري الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه. واستثنى منهم المكره فلم يدخل تحت حكم الافتراء، ثم قال: **﴿ولكن من شرح بالكفر صدرًا﴾** أي: طاب به نفسًا واعتقده **﴿فعليهم غضب من الله﴾**.

ويجوز أن يكون بدلاً من المبتدأ الذي هو: أولئك على ومن كفر بالله من بعد إيمانه هم الكاذبون، أو من الخبر الذي هو: الكاذبون على وأولئك هم من كفر بالله من بعد إيمانه.

ويجوز أن ينتصب على الذم، وقد جوّزوا أن يكون من كفر بالله شرطًا مبتدأ ويحذف جوابه؛ لأنّ جواب من شرح من دال عليه، كأنه قيل: من كفر بالله فعليهم غضب إلا من أكره، ولكن من شرح بالكفر صدرًا فعليهم غضب. وروي أنّ ناسًا من أهل مكة فتنوا فارتدوا عن الإسلام بعد دخولهم فيه، وكان فيهم من أكره، فأجرى كلمة الكفر على لسانه وهو معتقد للإيمان، منهم عمار وأبواه ياسر وسمية، وصهيب، وبلال، وخباب، وسالم عذبوا، فأمّا سمية فقد ربطت بين بعيرين ووجيء في قبلها بحربة قالوا: إنك أسلمت من أجل الرجال، فقتلت، وقتل ياسر وهما: أول قتيلين في الإسلام، وأما عمار فقد أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهًا فقيل: يا رسول الله إن عمارًا كفر، فقال: «كلا إنّ عمارًا مليء إيمانًا من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه» فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي، فجعل النبي ﷺ يمسح عينيه، وقال: «ما لك إن عادوا لك فعدلهم بما قلت»[3]. ومنهم جبر مولى الحضرمي أكرهه سيده فكفر ثم أسلم مولاه وأسلم وحسن إسلامهما وهاجرا.

فإن قُلْتَ: أي: الأمرين أفضل أفعل عمار أم فعل أبويه؟ **قُلْتُ:** بل فعل أبويه؛ لأنّ في ترك التقية والصبر على القتل إعزازًا للإسلام. وقد روي أنّ مسيلمة أخذ رجلين فقال لأحدهما: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله، قال: فما تقول في؟ قال: أنت أيضًا، فخلاه، وقال للآخر ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله، قال: فما تقول فيّ؟ قال: أنا أصم، فأعاد عليه ثلاثًا فأعاد جوابه، فقتله، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أما الأوّل: فقد أخذ برخصة الله، وأمّا الثاني: فقد صدع بالحق فهنيئًا له»[4].

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى الوعيد وأنّ الغضب والعذاب يلحقانهم بسبب استحبابهم الدنيا على الآخرة واستحقاقهم خذلان الله بكفرهم **﴿وأولئك هم الغافلون﴾** الكاملون في الغفلة الذين لا أحد أغفل منهم؛ لأنّ الغفلة عن تدبر العواقب هي غاية الغفلة ومنتهاها.

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَـٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾.

﴿ثم إنّ ربك﴾ دلالة على تباعد حال هؤلاء من حال أولئك وهم عمار وأصحابه، ومعنى إنّ ربك لهم: أنه لهم لا عليهم بمعنى: أنه وليهم وناصرهم لا عدوهم وخاذلهم، كما يكون الملك للرجل لا عليه فيكون محميًا منفوعًا غير مضرور **﴿من بعد ما فتنوا﴾** بالعذاب والإكراه على الكفر، وقرئ: فتنوا على البناء للفاعل أي: بعد ما عذبوا المؤمنين كالحضرمي وأشباهه **﴿من بعدها﴾** من بعد هذه الأفعال وهي: الهجرة والجهاد والصبر **﴿يوم تاتي﴾** منصوب برحيم أو بإضمار انكر.

فإن قُلْتَ: ما معنى النفس المضافة إلى النفس؟ **قُلْتُ:** يقال لعين الشيء وأنته نفسه وفي نقيضه غيره، والنفس الجملة كما هي، فالنفس الأولى: هي الجملة، والثانية: عينها

(1) سورة النحل، الآية: 101.

(2) سورة النحل، الآية: 101.

(3) رواه الحاكم في المستدرك 3/284.

(4) رواه ابن أبي شيبة 12/357 كتاب الجهاد، باب: المشركون يدعون المسلمين.

وذاتها فكأنه قيل: يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته لا يهمه شأن غيره كل يقول: نفسي نفسي، ومعنى المجادلة عنها: الاعتذار عنها كقوله: ﴿هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾[1] ﴿وما كنا مشركين﴾[2] ونحو ذلك.

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾.

﴿وضرب الله مثلاً قرية﴾ أي: جعل القرية التي هذه حالها مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فكفروا وتولوا فأنزل الله بهم نقمته، فيجوز أن تراد قدرية مقدرة على هذه الصفة، وأن تكون في قرى الأوّلين قرية كانت هذه حالها فضربها الله مثلاً لمكة إنذارًا من مثل عاقبتها ﴿مطمئنة﴾ لا يزعجها خوف؛ لأنّ الطمانينة مع الأمن والانزعاج والقلق مع الخوف ﴿رغدًا﴾ واسعًا. والأنعم جمع نعمة على ترك الاعتداد بالتاء كدرع وأدرع، أو جمع نعم، كبؤس وأبؤس، وفي الحديث: «نادى منادي النبي ﷺ بالموسم بمنى: إنها أيام طعم ونعم فلا تصوموا»[3].

فإن قُلْتَ[4]: الإذاقة واللباس استعارتان فما وجه صحتهما، والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار فما وجه صحة إيقاعها عليه؟ **قُلْتُ**: أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمسّ الناس منها فيقولون: ذاق فلان البؤس والضر، وأذاقه العذاب، شبّه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المرّ والبشع، وأما اللباس فقد شبّه به لاشتماله على اللابس ما غشي الإنسان والتبس به من بعض الحوادث، وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف؛ فلأنه لما وقع عبارة عما يغشي منهما ويلابس فكأنه قيل: فأذاقهم ما غشيهم من الجوع والخوف، ولهم في نحو هذا طريقان: لا بد من الإحاطة بهما، فإن الاستنكار لا يقع إلا لمن فقدهما.

أحدهما: أن ينظروا فيه إلى المستعار له كما نظر إليه ههنا، ونحوه قول كثير:

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكًا ... غلقت لضحكته رقاب المال

استعارة الرداء للمعروف؛ لأنه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلقى عليه، ووصفه بالغمر الذي هو وصف المعروف والنوال لا صفة الرداء نظر إلى المستعار له.

والثاني: أن ينظروا فيه إلى المستعار كقوله:

ينازعني ردائي عبد عمرو ... رويدك يا أخا عمرو بن بكر

لي الشطر الذي ملكت يميني ... ودونك فاعتجر منه بشطر

أراد برداءه سيفه، ثم قال: فاعتجر منه بشطر فنظر إلى المستعار في لفظ الاعتجار، ولو نظر إليه فيما نحن فيه لقيل: فكساهم لباس الجوع والخوف ولقال كثير: ضافي الرداء إذا تبسم ضاحكًا ﴿وهم ظالمون﴾ في حال التباسهم بالظلم كقوله: ﴿الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾[5] نعوذ بالله من مفاجأة النقمة والموت على الغفلة. وقرئ: والخوف عطفًا على اللباس، أو على تقدير حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، أصله ولباس الخوف وقرئ: لباس الخوف والجوع.

فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾.

لما وعظهم بما ذكر من حال القرية وما أوتيت به من كفرها وسوء صنيعها وصل بذلك بالفاء في قوله: ﴿فكلوا﴾ صدّهم عن أفعال الجاهلية ومذاهبهم الفاسدة التي كانوا عليها، بأن أمرهم بأكل ما رزقهم الله من الحلال الطيب وشكر إنعامه بذلك وقال: ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ يعني: تطيعون، أو إن صحّ زعمكم أنكم تعبدون الله بعبادة الآلهة لأنها شفعاؤكم عنده، ثم عدد عليهم محرمات الله، ونهاهم عن تحريمهم وتحليلهم بأهوائهم وجهالاتهم دون اتباع ما شرع الله على لسان أنبيائه.

وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾.

وانتصاب ﴿الكذب﴾ بلا تقولوا على ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة في قولكم:

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 38.

(2) سورة الأنعام، الآية: 23.

(3) قال الزيلعي: غريب جدًا.

(4) قال أحمد: وهذا الفصل من كلامه، يستحق على علماء البيان أن يكتبوه بذوب التبر، لا بالحبر، وقد نظر إليهما جميعاً في قوله تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾ فاستعير الشراء لاختيارهم الضلالة على الهدى، وقد كانوا متمكنين من اختياره عليها، ثم جاء ملاحظاً للشراء المستعار قوله: ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ فاستعمل التجارة = والربح، ليناسب ذلك لاستعارة الشراء، ثم جاء ملاحظاً للحقيقة الأصلية المستعار لها قوله: ﴿وما كانوا مهتدين﴾ فإنه مجرّد عن الاستعارة، إذ لو قيل: أولئك الذين ضلوا، وما كانوا مهتدين، لكان الكلام حقيقة معرى عن ثوب الاستعارة، والنظر إلى المستعار في بابه، كترشيح المجاز في بابه ومنه. إذا الشيطان قصع في قفاها. تنقفناه بالحبل التؤام. فجعل الشيطان في قفاها قاصعاً، ثم نافقاً، ثم جعله مستخرجاً بالحبل المحكم المثنى، كما يستخرج الحيوان من جحره، والشرط في هذا الفن البديع فطين، والله الموفق.

(5) سورة النحل، الآية: 28.

﴿ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرّم على أزواجنا﴾[1] من غير استناد ذلك الوصف إلى وحي من الله، أو إلى قياس مستند إليه. واللام مثلها في قولك: ولا تقولوا لما أحل الله هو حرام، وقوله: ﴿هذا حلال وهذا حرام﴾ بدل من الكذب ويجوز أن يتعلق بتصف على إرادة القول أي: ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم فتقول: هذا حلال وهذا حرام، ولك أن تنصب الكذب بتصف وتجعل ما مصدرية وتعلق هذا حلال وهذا حرام بلا تقولوا على ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب أي: لا تحرموا ولا تحللوا لأجل قول تنطق به ألسنتكم ويجول في أفواهكم لا لأجل حجة وبينة ولكن قول ساذج ودعوى فارغة.

فإن قُلْتَ: ما معنى وصف ألسنتهم الكذب؟ **قُلْتُ:** هو من فصيح الكلام بليغه جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه، فإذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحيلته وصوّرته بصورته كقولهم: وجهها يصف الجمال، وعينها تصف السحر، وقرئ: الكذب بالجرّ صفة لما المصدرية كأنه قيل: لوصفها الكذب بمعنى: الكاذب كقوله تعالى: ﴿بدم كذب﴾[2] والمراد بالوصف: وصفها البهائم بالحل والحرمة وقرئ: الكذب جمع كذوب بالرفع صفة للألسنة وبالنصب على الشتم، أو بمعنى الكلم الكواذب، أو هو جمع الكذاب من قولك: كذب كذابًا ذكره ابن جني. واللام في ﴿لتفتروا﴾ من التعليل الذي لا يتضمن معنى الغرض.

مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾.

﴿متاع قليل﴾ خبر مبتدأ محذوف أي: منفعتهم فيما هم عليه من أفعال الجاهلية منفعة قليلة وعقابها عظيم ﴿ما قصصنا عليك﴾ يعني: في سورة الأنعام ﴿بجهالة﴾ في موضع الحال أي: عملوا السوء جاهلين غير عارفين بالله وبعقابه، أو غير متدبرين للعاقبة لغلبة الشهوة عليهم ﴿من بعدها﴾ من بعد التوبة ﴿كان أمّة﴾[3] فيه وجهان: أحدهما: أنه كان وحده أمّة من الأمم لكماله في جميع صفات الخير كقوله:

ولـيـس بـمـسـتـنـكـر أن يـجـمـع الـعـالـم في واحـد

وعن مجاهد: كان مؤمنًا وحده والناس كلهم كفار. والثاني: أن يكون أمّة بمعنى مأموم أي: يؤمّه الناس ليأخذوا منه الخير، أو بمعنى: مؤتم به كالرحلة والنخبة وما أشبه ذلك مما جاء من فعلة بمعنى مفعول فيكون مثل قوله: ﴿قال إني جاعلك للناس إمامًا﴾[4] وروى الشعبي، عن فروة بن نوفل الأشجعي، عن ابن مسعود أنه قال: إنّ معاذًا كان أمّة قانتًا لله، فقلت: غلطت إنما هو إبراهيم فقال: الأمّة الذي يعلم الخير، والقانت المطيع لله ورسوله، وكان معاذ كذلك[5]. وعن عمر رضي الله عنه أنه قال حبن قيل له: ألا نستخلف؟ لو كان أبو عبيدة حيًا لاستخلفته، ولو كان معاذ حيًا لاستخلفته، ولو كان سالم حيًا لاستخلفته، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أبو عبيدة أمين هذه الأمّة، ومعاذ أمّة قانت لله ليس بينه وبين الله يوم القيامة إلا المرسلون، وسالم شديد الحب لله لو كان لا يخاف الله لم يعصه»[6]. وهو ذلك المعنى أي: كان إمامًا في الدين؛ لأنّ الأئمة معلمو الخير. والقانت: القائم بما أمره الله. والحنيف: المائل إلى ملة الإسلام غير الزائل عنه. ونفى عنه الشرك تكذيبًا لكفار قريش في زعمهم أنهم على ملة إبراهيم ﴿شاكرًا لأنعمه﴾ روي: أنه كان لا يتغدّى إلا مع ضيف، فلم يجد ذات يوم ضيفًا فأخر غداءه، فإذا هو بفوج من الملائكة في صورة البشر، فدعاهم إلى الطعام فخيلوا له أنّ بهم جذامًا فقال: الآن وجبت مواكلتكم شكرًا لله على أنه عافاني وابتلاكم ﴿اجتباه﴾ اختصه واصطفاه للنبوّة ﴿وهداه إلى صراط مستقيم﴾ إلى ملة الإسلام ﴿حسنة﴾ عن قتادة هي: تنويه الله بذكره حتى ليس من أهل دين إلا وهم يتولونه وقيل: الأموال والأولاد، وقيل: قول المصلي منا: كما صليت على إبراهيم ﴿لمن الصالحين﴾ لمن أهل الجنة.

ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾.

﴿ثم أوحينا إليك﴾[7] في ثم هذه ما فيها من تعظيم

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 139.

(2) سورة يوسف، الآية: 18.

(3) قال أحمد: ويقوّي هذا الثاني قوله تعالى: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾ أي: كان أمّة تؤمّه الناس، ليقتبسوا منه الخيرات، ويقتفوا بآثاره المباركات، حتى أنت على جلالة قدرك قد أوحينا إليك أن اتبع ملته، ووافق سيرته، والله أعلم.

(4) سورة البقرة، الآية: 124.

(5) رواه الحاكم في المستدرك 3/271.

(6) لم يخرجه الزيلعي.

(7) قال أحمد: وإنما تفيد ذلك، ثم لأنها في أصل وضعها لتراخي المعطوف عليه في الزمان، ثم استعملت في تراخيه عنه في علو المرتبة، بحيث يكون المعطوف أعلى رتبة، واشمخ محلاً مما عطف عليه، فكأنه بعد أن عدّد مناقب الخليل عليه السلام، قال تعالى وهنا ما هو أعلى من ذلك كله قدراً، وأرفع رتبة، وأبعد رفعة، وهو: أنّ النبيّ الأميّ الذي هو سيد البشر، متبع لملة إبراهيم، مأمور باتباعه بالوحي، متلوّ أمره بذلك في القرآن العظيم، ففي ذلك تعظيم لهما جميعاً، لكن نصيب النبي ﷺ من هذا التعظيم، أوفر وأكبر على ما مهدناه، والله الموفق للصواب.

منزلة رسول الله ﷺ وإجلال محله، والإيدان بأنّ أشرف ما أوتي خليل الله إبراهيم من الكرامة وأجلّ ما أولي من النعمة اتباع رسول الله ﷺ ملته، من قبل أنها دلت على تباعد هذا النعت في المرتبة من بين سائر النعوت التي أثنى الله عليه بها.

إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾.

﴿السبت﴾ مصدر سبتت اليهود إذا عظمت سبتها، والمعنى: إنما جعل وبال السبت وهو: المسخ **﴿على الذين اختلفوا فيه﴾** واختلافهم فيه أنهم أحلوا الصيد فيه تارة وحرّموه تارة، وكان الواجب عليهم أن يتفقوا في تحريمه على كلمة واحدة بعد ما ختم الله عليهم الصبر عن الصيد فيه وتعظيمه، والمعنى في نكر ذلك نحو والمعنى في ضرب القرية التي كفرت بأنعم الله مثلاً، وغير ما نكر وهو الإنذار من سخط الله على العصاة والمخالفين لأوامره والخالعين ربقة طاعته.

فإن قُلْتَ: ما معنى الحكم بينهم إذا كانوا جميعًا محلين أو محرّمين؟ **قُلْتُ:** معناه: أنه يجازيهم جزاء اختلاف فعلهم في كونهم محلين تارة ومحرّمين أخرى، ووجه آخر وهو أنّ موسى عليه السلام أمرهم أن يجعلوا في الأسبوع يومًا للعبادة وأن يكون يوم الجمعة، فأبوا عليه وقالوا: نريد اليوم الذي فرغ الله فيه من خلق السمٰوات والأرض وهو السبت، إلا شرذمة منهم قد رضوا بالجمعة، فهذا اختلافهم في السبت؛ لأنّ بعضهم اختاره وبعضهم اختار عليه الجمعة، فأذن الله لهم في السبت، وابتلاهم بتحريم الصيد فيه، فأطاع أمر الله الراضون بالجمعة فكانوا لا يصيدون فيه، وأعقابهم لم يصبروا عن الصيد فمسخهم الله دون أولئك وهو يحكم **﴿بينهم يوم القيامة﴾** فيجازي كل واحد من الفريقين بما يستوجبه. ومعنى **﴿جعل السبت﴾** فرض عليهم تعظيمه وترك الاصطياد فيه، وقرئ: إنما جعل السبت على البناء للفاعل، وقرأ عبد الله: إنا أنزلنا السبت.

ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾.

﴿إلى سبيل ربك﴾ إلى الإسلام **﴿بالحكمة﴾** بالمقالة المحكمة الصحيحة وهي الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة **﴿والموعظة الحسنة﴾** وهي التي لا يخفى عليهم أنك تناصحهم بها وتقصد ما ينفعهم فيها، ويجوز أن يريد القرآن أي: ادعهم بالكتاب الذي هو حكمة وموعظة حسنة **﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾** بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة ولا تعنيف **﴿إنّ ربك هو أعلم﴾** بهم فمن كان فيه خير كفاه الوعظ القليل والنصيحة اليسيرة، ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل وكأنك تضرب منه في حديد بارد.

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾.

سمى الفعل الأوّل باسم الثاني للمزاوجة، والمعنى: إن صنع بكم صنيع سوء من قتل أو نحوه، فقابلوه بمثله ولا تزيدوا عليه. وقرئ: وإن عقبتم فعقبوا أي: وإن قفيتم بالانتصار فقفوا بمثل ما فعل بكم. روي أن المشركين مثلوا بالمسلمين يوم أحد، بقروا بطونهم وقطعوا مذاكيرهم ما تركوا أحدًا غير ممثول به إلا حنظلة بن الراهب، فوقف رسول الله ﷺ على حمزة وقد مثل به، وروي: فرآه مبقور البطن فقال: «أما والذي أحلف به لئن أظفرني الله بهم لأمثلنّ بسبعين مكانك»[1]. فنزلت. فكفر عن يمينه وكفّ عما أراده، ولا خلاف في تحريم المثلة، وقد وردت الأخبار «بالنهي عنها»[2] حتى بالكلب العقور. إمّا أن يرجع الضمير في **﴿لهو﴾** إلى صبرهم وهو مصدر صبرتم ويراد بالصابرين المخاطبون أي: ولئن صبرتم لصبركم خير لكم، فوضع الصابرون موضع الضمير أثناء من الله عليهم بأنهم صابرون على الشدائد، أو وصفهم بالصفة التي تحصل لهم إذا صبروا عن المعاقبة، وإما أن يرجع إلى جنس الصبر وقد دل عليه صبرتم ويراد بالصابرين جنسهم كأنهم قيل: وللصبر خير الصابرين ونحوه قوله تعالى: **﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾**[3] **﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾**[4] ثم قال لرسوله ﷺ: **﴿واصبر﴾** أنت، فعزم عليه بالصبر **﴿وما صبرك إلا بالله﴾** أي: بتوفيقه وتثبيته وربطه على قلبك **﴿ولا تحزن عليهم﴾** أي: على الكافرين، كقوله: **﴿فلا تأس على القوم الكافرين﴾**[5] وعلى المؤمنين وما فعل بهم الكافرون **﴿ولا تك في ضيق﴾** وقرئ: ولا تكن في ضيق أي: ولا يضيقنّ صدرك من مكرهم، والضيق تخفيف الضيق أي: في أمر ضيق، ويجوز أن يكون الضيق والضيق مصدرين كالقيل والقول **﴿إنّ الله مع الذين اتقوا﴾** أي: هو وليّ الذين اجتنبوا المعاصي **﴿و﴾** وليّ **﴿الذين هم محسنون﴾** في أعمالهم، وعن هرم بن حيان أنه قيل له حين احتضر: أوص، فقال: إنما الوصية من المال ولا مال لي، وأوصيكم بخواتم سورة النحل.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله

(1) قال الزيلعي: غريب بهذا اللفظ ونكره الثعلبي هكذا من غير سند 250/2.

(2) قال الزيلعي: إنها مستوفاة في الهداية.

(3) سورة الشورى، الآية: 40.

(4) سورة البقرة، الآية: 237.

(5) سورة المائدة، الآية: 68.

بما أنعم عليه في دار الدنيا، وإن مات في يوم تلاها أو ليلته كان له من الأجر كالذي مات وأحسن الوصية»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الإسراء مكية

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾.

﴿سبحان﴾ علم للتسبيح كعثمان للرجل، وانتصابه بفعل مضمر متروك إظهاره تقديره: أسبح الله سبحان، ثم نزل سبحان منزلة الفعل فسد مسدّه ودل على التنزيه البليغ من جميع القبائح التي يضيفها إليه أعداء الله و **﴿أسرى﴾** وسرى لغتان و **﴿ليلاً﴾** نصب على الظرف.

فإن قُلْتَ[2]: الإسراء لا يكون إلا بالليل فما معنى نكر الليل؟ **قُلْتُ**: أراد بقوله ليلاً بلفظ التنكير: تقليل مدّة الإسراء، وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة، وذلك أنّ التنكير فيه قد دلّ على معنى البعضية، ويشهد لذلك قراءة عبد الله، وحذيفة: من الليل أي: بعض الليل كقوله: **﴿ومن الليل فتهجد به نافلة﴾**[3] يعني: الأمر بالقيام في بعض الليل، واختلف في المكان الذي أسرى منه، فقيل: هو المسجد الحرام بعينه وهو الظاهر، وروي عن النبي ﷺ: «بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل عليه السلام بالبراق[4]»، وقيل: أسري به من دار أم هانئ بنت أبي طالب»[5]، والمراد بالمسجد الحرام: الحرم لإحاطته بالمسجد والتباسه به، وعن ابن عباس: الحرم كله مسجد، وروي أنه كان نائمًا في بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء فأسري به، ورجع من ليلته، وقص القصة على أم هانىء، وقال: «مثل لي النبيون فصليت بهم» وقام ليخرج إلى المسجد فتشبثت أمّ هانئ بثوبه فقال: «مالك؟» قالت: أخشى أن يكذبك قومك إن أخبرتهم، قال: «وإن كذبوني» فخرج فجلس إليه أبو جهل فأخبره رسول الله ﷺ بحديث الإسراء، فقال أبو جهل: يا معشر بني كعب بن لؤي هلم، فحدثهم، فمن بين مصفق، وواضع يده على رأسه تعجبًا وإنكارًا، وارتد ناس ممن كان آمن به، وسعى رجال إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقال: إن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أتصدقه على ذلك؟ قال: إني لأصدقه على أبعد من ذلك. فسمي الصديق، وفيهم من سافر إلى ما ثمّ، فاستنعتوه المسجد، فجلى له بيت المقدس، فطفق ينظر إليه وينعته لهم، فقالوا: أمّا النعت فقد أصاب، فقالوا: أخبرنا عن عيرنا؟ فأخبرهم بعدد جمالها، وأحوالها، وقال: «تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أو ورق»، فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية، فقال قائل منهم: هذه والله الشمس قد شرقت، فقال آخر: وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد، ثم لم يؤمنوا، وقالوا: ما هذا إلا سحر مبين، وقد عرج به إلى السماء في تلك الليلة، وكان العروج به من بيت المقدس، وأخبر قريشًا أيضًا بما رأى في السماء من العجائب، وأنه لقي الأنبياء، وبلغ البيت المعمور، وسدرة المنتهى، واختلفوا في وقت الإسراء، فقيل كان قبل الهجرة بسنة، وعن أنس والحسن: أنه كان قبل البعث، واختلف في أنه كان في اليقظة أم في المنام. فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: والله ما فقد جسد رسول الله ﷺ، ولكن عرج بروحه[6]. وعن معاوية: إنما عرج بروحه، وعن الحسن: كان في المنام رؤيا رآها، وأكثر الأقاويل بخلاف ذلك. والمسجد الأقصى: بيت المقدس لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد **﴿باركنا حوله﴾** يريد بركات الدين والدنيا؛ لأنه متعبد الأنبياء من وقت موسى، ومهبط الوحي وهو محفوف بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة. وقرأ الحسن: ليريه بالياء ولقد تصرف الكلام على لفظ الغائب والمتكلم فقيل: أسرى، ثم باركنا، ثم ليريه على قراءة الحسن، ثم من آياتنا، ثم إنه هو، وهي طريقة الالتفات التي هي من طرق البلاغة **﴿إنه هو السميع﴾** لأقوال محمد **﴿البصير﴾** بأفعاله العالم بتهذبها وخلوصها فيكرمه ويقربه على حسب ذلك.

وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا

---

(1) رواه الثعلبي وابن مردويه.

(2) قال أحمد: وقد قرن الإسراء بالليل في موضع لا يليق الجواب عنه بهذا، كقوله بأملك بقطع من الليل: **﴿فأسر﴾**، كقوله تعالى: **﴿فاسر بعبادي ليلاً﴾** فالظاهر، والله أعلم، أنّ الغرض من نكر الليل، وإن كان الإسراء يفيده، تصوير السير بصورته في ذهن السامع، وكان الإسراء لما دلّ على أمرين، أحدهما: السير، والآخر: كونه ليلاً، أريد إفراد أحدهما بالنكر، تثبيتاً في نفس المخاطب، وتنبيهاً على أنه مقصور بالنكر، ونظيره في إفراد أحد ما دلّ عليه اللفظ المتقدم، مضموماً لغيره قوله تعالى: **﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد﴾** فالاسم الحامل للتثنية دل عليها وعلى الجنسية، وكذلك المفرد، فأريد التنبيه؛ لأنّ أحد المعنيين، وهو: = التثنية، مراد مقصود، وكذلك أريد الإيقاظ؛ لأنّ الوحدانية هي المقصودة في قوله: **﴿إنما هو إله واحد﴾** ولو اقتصر على قوله: **﴿إنما هو إله﴾** لأوهم أنّ المهم إثبات الإلهية له، والغرض من الكلام، ليس إلا الإثبات للوحدانية، والله أعلم.

(3) سورة الإسراء، الآية: 79.

(4) رواه البخاري في صحيحه، كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة، (الحديث رقم: 3207)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ (الحديث رقم: 415).

(5) رواه الطبراني والنسائي في سننه الكبرى.

(6) رواه ابن إسحاق في السيرة، (الزيلعي 2/259).

شَكُورًا ﴿٣﴾.

﴿ألا تتخذوا﴾ قرئ: بالياء على لئلا يتخذوا، وبالتاء على أي: لا تتخذوا، كقولك: كتبت إليه أن افعل كذا ﴿وكيلاً﴾ ربًا تكلون إليه أموركم ﴿ذرية من حملنا﴾ نصب على الاختصاص، وقيل: على النداء فيمن قرأ لا تتخذوا بالتاء على النهي يعني: قلنا لهم: لا تتخذوا من دوني وكيلاً يا ذرية من حملنا ﴿مع نوح﴾ وقد يجعل وكيلاً ذرية من حملنا مفعولي تتخذوا أي: لا تجعلوهم أربابًا كقوله: ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا﴾[1] ومن ذرية المحمولين مع نوح عيسى وعزير عليهم السلام، وقرئ: ذرية من حملنا بالرفع بدلاً من واو تتخذوا، وقرأ زيد بن ثابت: ذرية بكسر الذال، وروي عنه: أنه قد فسرها بولد الولد ذكرهم الله النعمة في إنجاء آبائهم من الغرق ﴿إنه﴾ إن نوحًا ﴿كان عبدًا شكورًا﴾ قيل: كان إذا أكل قال: الحمد لله الذي أطعمني ولو شاء أجاعني، وإذا شرب قال: الحمد لله الذي سقاني ولو شاء اظمأني، وإذا اكتسى قال: الحمد لله الذي كساني ولو شاء أعراني، وإذا احتذى قال: الحمد لله الذي حذاني ولو شاء أحفاني، وإذا قضى حاجته قال: الحمد لله الذي أخرج عني أذاه في عافية ولو شاء حبسه، وروي أنه كان إذا أراد الإفطار عرض طعامه على من أمن به فإن وجده محتاجًا آثره به.

فإن قُلْتَ: قوله: ﴿إنه كان عبدًا شكورًا﴾ ما وجه ملاءمته لما قبله؟ **قُلْتُ:** كأنه قيل: لا تتخذوا من دوني وكيلاً ولا تشركوا بي؛ لأنّ نوحًا عليه السلام كان عبدًا شكورًا وأنتم ذرية من آمن به وحمل معه فاجعلوه أسوتكم كما جعله آباؤكم أسوتهم، ويجوز أن يكون تعليلاً لاختصاصهم والثناء عليهم بأنهم أولاد المحمولين مع نوح فهم متصلون به فاستأهلوا لذلك الاختصاص، ويجوز أن يقال ذلك عند ذكره على سبيل الاستطراد.

وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾.

﴿وقضينا إلى بني إسرائيل﴾ وأوحينا إليهم وحيًا مقضيًا أي: مقطوعًا مبتوتًا بأنهم يفسدون في الأرض لا محالة ويعلون أي: يتعظمون ويبغون ﴿في الكتاب﴾ في التوراة و﴿لتفسدنّ﴾ جواب قسم محذوف، ويجوز أن يجري القضاء المبتوت مجرى القسم فيكون لتفسدن جوابًا له كأنه قال: وأقسمنا لتفسدن، وقرئ: لتفسدنّ على البناء للمفعول، ولتفسدن بفتح التاء من فسد ﴿مرتين﴾ أولاهما: قتل زكريا وحبس أرميا حين أنذرهم سخط الله، والآخرة: قتل يحيى بن زكريا وقصد قتل عيسى ابن مريم ﴿عبادًا لنا﴾ وقرئ: عبيدًا لنا وأكثر ما يقال: عباد الله وعبيد الناس: سنحاريب وجنوده، وقيل بختنصر، وعن ابن عباس: جالوت، قتلوا علماءهم وأحرقوا التوراة وخربوا المسجد وسبوا منهم سبعين ألفًا.

فإن قُلْتَ[2]: كيف جاز أن يبعث الله الكفرة على ذلك ويسلطهم عليه؟ **قُلْتُ:** معناه خلينا بينهم وبين ما فعلوا ولم تمنعهم، على أنّ الله عزّ وعلا أسند بعث الكفرة عليهم إلى نفسه فهو كقوله تعالى: ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضًا بما كانوا يكسبون﴾[3] وكقول الداعي: وخالف بين كلمهم، وأسند الجوس: وهو التردّد خلال الديار بالفساد إليهم، فتخريب المسجد وإحراق التوراة من جملة الجوس المسند إليهم. وقرأ طلحة فحاسوا بالحاء، وقرئ: فجوّسوا وخلل الديار.

فإن قُلْتَ: ما معنى ﴿وعد أولاهما﴾؟ **قُلْتُ:** معناه وعد عقاب أولاهما ﴿وكان وعدًا مفعولاً﴾ يعني: وكان وعد العقاب وعدًا لا بد أن يفعل.

ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾.

﴿ثم رددنا لكم الكرة﴾ أي: الدولة والغلبة على الذين بعثوا عليكم حين تبتم ورجعتم عن الفساد والعلوّ، وقيل: هي قتل بختنصر، واستنقاذ بني إسرائيل أسراهم وأموالهم ورجوع الملك إليهم، فقيل: هي قتل داود جالوت ﴿أكثر نفيرًا﴾ مما كنتم، والنفير من ينفر مع الرجل من قومه، وقيل: جميع نفر كالعبيد والمعين.

إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾.

أي: الإحسان والإساءة كلاهما مختص بأنفسكم لا يتعدى النفع والضرر إلى غيركم، وعن علي رضي الله عنه: ما أحسنت إلى أحد ولا أسأت إليه وتلاها ﴿فإذا جاء وعد﴾ المرة ﴿الآخرة﴾ بعثناهم ﴿ليسوؤا وجوهكم﴾ حذف لدلالة ذكره أولاً عليه، ومعنى ليسوؤا وجوهكم: ليجعلوها بادية آثار المساءة والكآبة فيها كقوله: ﴿سيئت وجوه الذين كفروا﴾[4] وقرئ: ليسوم، والضمير لله تعالى أو للوعد أو للبعث، ولنسوء بالنون، وفي قراءة علي:

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 80.

(2) قال أحمد: هذا السؤال إنما يتوجه على قدري يوجب على الله تعالى، بزعمه رعاية ما يتوهمه بعقله مصلحة، وأمّا السني إذا سئل هذا السؤال، أجاب عنه بقوله: لا يسأل عما يفعل، والله الموفق.

(3) سورة الأنعام، الآية: 129.

(4) سورة الملك، الآية: 27.

لنسوأن وليسوأن، وقرئ: لنسوأن بالنون الخفيفة. واللام في ﴿ليدخلوا﴾ على هذا متعلق بمحذوف وهو وبعثناهم ليدخلوا ولنسوأن جواب إذا جاء ﴿ما علوا﴾ مفعول ليتبروا أي: ليهلكوا كل شيء غلبوه واستولوا عليه، أو بمعنى مدّه علوهم.

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾.

﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ بعد المرة الثانية إن تبتم توبة أخرى وانزجرتم عن المعاصي ﴿وإن عدتم﴾ مرة ثالثة ﴿عدنا﴾ إلى عقوبتكم، وقد عادوا فأعاد الله إليهم النقمة بتسليط الأكاسرة وضرب الإتاوة عليهم، وعن الحسن عادوا فبعث الله محمدًا فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون، وعن قتادة: ثم كان آخر ذلك أن بعث الله عليهم هذا الحيّ من العرب فهم منهم في عذاب إلى يوم القيامة ﴿حصيرًا﴾ محبسًا يقال للسجن: محصر وحصير، وعن الحسن: بساطًا كما يبسط الحصير المرمول.

إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾.

﴿للتي هي أقوم﴾ للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدها أو للملة أو للطريقة، وأينما قدرت لم تجد مع الإثبات نوق البلاغة الذي تجده مع الحذف لما في إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تفقد مع إيضاحه. وقرئ: ويبشر بالتخفيف.

فإن قُلْتَ: كيف ذكر المؤمنين الأبرار والكفار ولم يذكر الفسقة **قُلْتُ:** كان الناس حينئذ: إما مؤمن تقي، وإما مشرك، وإنما حث أصحاب المنزلة بين المنزلتين بعد ذلك.

فإن قُلْتَ: علام عطف ﴿وأن الذين لا يؤمنون﴾؟ **قُلْتُ:** على أن لهم أجرًا كبيرًا على معنى أنه بشّر المؤمنين ببشارتين اثنتين، بثوابهم، وبعقاب أعدائهم، ويجوز أن يراد ويخبر بأن الذين لا يؤمنون معذبون.

وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾.

أي: ويدعو الله عند غضبه بالشر على نفسه وأهله وماله كما يدعوه لهم بالخير كقوله: ﴿ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير﴾[1] ﴿وكان الإنسان عجولاً﴾ يتسرع إلى طلب كل ما يقع في قلبه ويخطر بباله لا يتأنى فيه تأنى المتبصر، وعن النبي ﷺ: «أنه دفع إلى سودة بنت زمعة أسيرًا فأقبل يئن بالليل فقالت له: مالك تئن؟ فشكا ألم القدّ فأرخت من كتافه، فلما نامت أخرج يده وهرب، فلما أصبح النبي ﷺ دعا به فأعلم بشأنه فقال ﷺ: اللهم اقطع يديها. فرفعت سودة يديها تتوقع الإجابة وأن يقطع الله يديها، فقال النبي ﷺ: «إني سألت الله أن يجعل لعنتي ودعائي على من لا يستحق من أهلي رحمة لأني بشر أغضب كما يغضب البشر، فلترد سودة يديها»[2]. ويجوز أن يريد بالإنسان الكافر وأنه يدعو بالعذاب استهزاء ويستعجل به كما يدعو بالخير إذا مسته الشدّة، وكان الإنسان عجولاً يعني أنّ العذاب آتية لا محالة فما هذا الاستعجال، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو النضر بن الحرث قال: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك﴾[3] الآية فأجيب له فضربت عنقه صبرًا.

وَجَعَلْنَا الَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ الَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾.

فيه وجهان: أحدهما: أن يراد أن الليل والنهار آيتان في أنفسهما، فتكون الإضافة في آية الليل وآية النهار للتبيين كإضافة العدد إلى المعدود أي: فمحونا الآية التي هي الليل، وجعلنا الآية التي هي النهار مبصرة، والثاني: أن يراد وجعلنا نيري الليل والنهار آيتين يريد الشمس والقمر فمحونا آية الليل أي: جعلنا الليل ممحو الضوء مطموسه مظلمًا لا يستبان فيه شيء كما لا يستبان ما في اللوح الممحو، وجعلنا النهار مبصرًا أي: تبصر فيه الأشياء وتستبان، أو فمحونا آية الليل التي هي القمر حيث لم يخلق لها شعاعًا كشعاع الشمس فترى به الأشياء رؤية بينة، وجعلنا الشمس ذات شعاع يبصر في ضوئها كل شيء ﴿لتبتغوا فضلاً من ربكم﴾ لتتوصلوا ببياض النهار إلى استباغة أعمالكم والتصرف في معايشكم ﴿ولتعلموا﴾ باختلاف الجديدين ﴿عدد السنين﴾ جنس ﴿والحساب﴾ وما تحتاجون إليه منه، ولولا ذلك لما علم أحد حسبان الأوقات ولتعطلت الأمور ﴿وكل شيء﴾ مما تفتقرون إليه في دينكم ودنياكم ﴿فصلناه﴾ بيناه بيانًا غير ملتبس فأزحنا عللكم وما تركنا لك حجة علينا.

وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾.

﴿طائره﴾ عمله وقد حققنا القول فيه في سورة النمل، وعن ابن عيينة: هو من قولك: طار له سهم إذا خرج يعني: ألزمناه ما طار من عمله، والمعنى: أنّ عمله لازم له لزوم القلادة، أو الغل لا يفك عنه، ومنه مثل العرب: تقلدها طوق الحمامة، وقولهم: الموت في الرقاب، وهذا ربقة في رقبته، وعن الحسن: يا ابن آدم بسطت لك صحيفة إذا بعثت قلدتها في عنقك. وقرئ: في عنقه بسكون النون. وقرئ: نخرج بالنون، ويخرج بالياء، والضمير لله عزّ وجلّ، ويخرج

---

(1) سورة يونس، الآية: 11.

(2) قال الزيلعي: غريب من حديث سودة، وأورد بسنده حديث عن عائشة ذكره ابن الطلاية 2/260. =

(3) سورة الأنفال، الآية: 32. =

على البناء للمفعول، ويخرج من خرج، والضمير للطائر أي: يخرج الطائر كتابًا، وانتصاب كتابًا على الحال. وقرئ: يلقاه بالتشديد مبنيًا للمفعول و ﴿يلقاه منشورًا﴾ صفتان للكتاب، أو يلقاه صفة، ومنشورًا حال من يلقاه.

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾.

﴿اقرأ﴾ على إرادة القول، وعن قتادة: يقرأ ذلك اليوم ما لم يكن في الدنيا قارئًا و ﴿بنفسك﴾ فاعل كفى و ﴿حسيبًا﴾ تمييز وهو بمعنى: حاسب، كضريب القداح بمعنى: ضاربها، وصريم بمعنى: صارم، نكرهما سيبويه. وعلى متعلق به من قولك حسب عليه كذا، ويجوز أن يكون بمعنى: الكافي وضع موضع الشهيد فعدّي بعلي؛ لأنّ الشاهد يكفي المدّعي ما أهمه.

فإن قُلْتَ: لم نكر ﴿حسيبًا﴾؟ **قُلْتُ:** لأنه بمنزلة الشهيد والقاضي والأمير؛ لأنّ الغالب أنّ هذه الأمور يتولاها الرجال فكأنه قيل: كفى بنفسك رجلاً حسيبًا، ويجوز أن يتأوّل النفس بالشخص كما يقال: ثلاثة أنفس. وكان الحسن إذا قرأها قال: يا ابن آدم أنصفك والله من جعلك حسيب نفسك. أي: كل نفس حاملة وزرًا فإنما تحمل وزرها لا وزر نفس أخرى ﴿وما كنا معذبين﴾[1] وما صحّ مناصحة تدعو إليها الحكمة أن نعذب قومًا إلا بعد أن ﴿نبعث﴾ إليهم ﴿رسولاً﴾ فنلزمهم الحجة.

فإن قُلْتَ: الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسل؛ لأنّ معهم أدلة العقل التي بها يعرف الله وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه، واستيجابهم العذاب لإغفالهم النظر فيما معهم وكفرهم لذلك لا لإغفال الشرائع التي لا سبيل إليها إلا بالتوقيف، والعمل بها لا يصح إلا بعد الإيمان؟ **قُلْتُ:** بعثة الرسل من جملة التنبيه على النظر والإيقاظ من رقدة الغفلة لئلا يقولوا: كنا غافلين فلولا بعثت إلينا رسولاً ينبهنا على النظر في أدلة العقل.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾.

﴿وإذا أردنا﴾ وإذا دنا وقت إهلاك قوم ولم يبق من زمان إمهالهم إلا قليل أمرناهم ﴿ففسقوا﴾ أي: أمرناهم بالفسق ففعلوا والأمر مجاز[2]؛ لأنّ حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم: افسقوا وهذا لا يكون، فبقي أن يكون مجازًا، ووجه المجاز أنه صب عليهم النعمة صبًا فجعلوها ذريعة إلى المعاصي واتباع الشهوات فكأنهم مأمورون بذلك لتسبب إيلاء النعمة فيه، وإنما خولهم إياها ليشكروا ويعملوا فيها الخير ويتمكنوا من الإحسان والبرّ، كما خلقهم أصحاء أقوياء وأقدرهم على الخير والشر وطلب منهم إيثار الطاعة على المعصية فآثروا الفسوق، فلما فسقوا حق عليهم القول وهو: كلمة العذاب فدمرهم.

فإن قُلْتَ: هلا زعمت أن معناه أمرناهم بالطاعة ففسقوا؟ **قُلْتُ:** لأن حذف ما لا دليل عليه غير جائز، فكيف يحذف ما الدليل قائم على نقيضه؟ وذلك أن المأمور به إنما حذف لأن فسقوا يدل عليه، وهو كلام مستفيض يقال: أمرته فقام، وأمرته فقرأ، لا يفهم منه إلا أن المأمور به قيام وقراءة، ولو ذهبت تقدر غيره فقد رمت من مخاطبك علم الغيب، ولا يلزم على هذا قولهم أمرته فعصاني، أو فلم يتمثل أمري؛ لأنّ ذلك مناف للأمر مناقض له، ولا يكون ما يناقض الأمر مأمورًا به، فكان محالاً أن يقصد أصلاً حتى يجعل دالاً على المأمور به، فكان المأمور به في هذا الكلام غير مدلول عليه ولا منوي؛ لأنّ من يتكلم بهذا الكلام فإنه لا ينوي لأمره مأمورًا به وكأنه يقول: كان مني أمر فلم تكن منه طاعة، كما أن من يقول: فلان يعطي ويمنع، ويأمر وينهى، غير قاصد إلى مفعول.

فإن قُلْتَ: هلا كان ثبوت العلم بأن الله لا يأمر بالفحشاء، وإنما يأمر بالقصد والخير دليلاً على أن المراد أمرناهم بالخير ففسقوا؟ **قُلْتُ:** لا يصحّ ذلك؛ لأنّ قوله: ﴿ففسقوا﴾ يدافعه، فكأنك أظهرت شيئًا وأنت تدعي إضمار خلافه، فكان صرف الأمر إلى المجاز هو الوجه، ونظير أمر شاء في أن مفعوله استفاض فيه الحذف لدلالة ما بعده عليه تقول: لو شاء لأحسن إليك، ولو شاء لأساء إليك، تريد لو شاء الإحسان ولو شاء الإساءة، فلو ذهبت تضمر خلاف ما أظهرت وقلت: قد دلت حال من أسندت إليه المشيئة أنه من أهل الإحسان، أو من أهل الإساءة، فاترك الظاهر المنطوق به وأضمر ما دلت عليه حال صاحب المشيئة، لم تكن على سداد، وقد فسر بعضهم ﴿أمرنا﴾ بكثرنا وجعل أمرته فأمر

---

(1) قال أحمد: وهذا السؤال أيضاً إنما يتوجه على قدري، يزعم أن العقل يرشد إلى وجوب النظر، وإلى كثير من أحكام الله تعالى، وإن لم يبعث رسول، فيكلفه بعقله، ويرتب على ترك امتثال التكليف استيجاب العذاب، إذ العقل كاف عندهم في إيجاب المعرفة، بل في جميع الأحكام، بناء على قاعدة التحسين والتقبيح العقليين، وأما السني، فلا يتوجه عليه هذا السؤال، فإنّ العقل عنده شرط في وجوب عموم الأحكام، ولا تكليف عنده قبل ورود الشرائع، وبعث الأنبياء، وحينئذ يثبت الحكم، وتقوم الحجة، كما أنبأت عنه هذه الآية التي يروم الزمخشري تحريفها، فتعتاص= عليه، وتسدّ طرق الحيل بين يديه؛ لأنه الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، نعم العقل عمدة في حصول المعرفة، لا في وجوبها، وبين الحصول والوجوب بون بعيد، والله الموفق.

(2) قال أحمد: نص حسن، إلا قوله أنهم خلوا النعم ليشكروا، فإنه فرعه على قاعدة وجوب إرادة الله تعالى للطاعة، والحق أنهم خولوها وأمروا بالشكر، ففسقوا وكفروا، على خلاف الأمر، والأمر غير الإرادة على قاعدة أهل الحق، والله الموفق.

من باب فعلته ففعل كثيرته فثبر، وفي الحديث: «خير المال سكة مأثورة، ومهرة مأمورة» أي: كثيرة النتاج. وروي: أن رجلاً من المشركين قال لرسول الله ﷺ: إني أرى أمرك هذا حقيرًا، فقال ﷺ: «إنه سيأمر»[1] أي سيكثر وسيكبر. وقرئ*: آمرنا من أمر وأمره غيره، وأمّرنا بمعنى أمرنا، أو من أمر أمارة، وأمره الله أي: جعلناهم أمراء وسلطناهم.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾.

﴿كم﴾ مفعول **﴿أهلكنا﴾** و **﴿من القرون﴾** بيان لكم وتمييز له كما يميز العدد بالجنس يعني: عادًا وثمودًا وقرونًا بين ذلك كثيرًا ونبّه بقوله **﴿وكفى بربك بذنوب عباده خبيرًا بصيرًا﴾** على أن الذنوب هي أسباب الهلكة لا غير وأنه عالم بها ومعاقب عليها.

مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾.

من كانت[2] العاجلة همه ولم يرد غيرها كالكفرة وأكثر الفسقة تفضلنا عليه من منافعها بما نشاء لمن نريد، فقيد الأمر تقييدين أحدهما: تقييد المعجل بمشيئته، والثاني: تقييد المعجل له بإرادته، وهكذا الحال ترى كثيرًا من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون إلا بعضًا منه، وكثيرًا منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه، فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة، وأما المؤمن التقي فقد اختار مراده وهو: غنى الآخرة فما يبالي أوتي حظًا من الدنيا أو لم يؤت، فإن أوتي فيها وإلا فربما كان الفقر خيرًا له وأعون على مراده وقوله: **﴿لمن نريد﴾** بدل من له وهو بدل البعض من الكل؛ لأن الضمير يرجع إلى من وهو في معنى الكثرة. وقرئ*: يشاء، وقيل: الضمير لله تعالى فلا فرق إذًا بين القراءتين في المعنى، ويجوز أن يكون للعبد على أن للعبد ما يشاء من الدنيا وأن ذلك لواحد من الدهماء يريد به الله ذلك، وقيل: هو من يريد الدنيا بعمل الآخرة كالمنافق، والمرائي، والمهاجر للدنيا، والمجاهدة للغنيمة، والذكر كما قال ﷺ: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[3]. **﴿مدحورًا﴾** مطرودًا من رحمة الله **﴿سعيها﴾** حقها من السعي، وكفاءها من الأعمال الصالحة. اشترط ثلاث شرائط في كون السعي مشكورًا إرادة الآخرة بأن يعقد بها همه ويتجافى عن دار الغرور، والسعي فيما كلف من الفعل والترك، والإيمان الصحيح الثابت، وعن بعض المتقدمين: من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله، إيمان ثابت، ونية صادقة، وعمل مصيب، وتلا هذه الآية. وشكر الله الثواب على الطاعة.

كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾.

﴿كلًّا﴾ كل واحد من الفريقين، والتنوين عوض من المضاف إليه **﴿نمد﴾** هم نزيدهم من عطائنا ونجعل الآنف منه مددًا للسالف لا بقطعه، فنرزق المطيع والعاصي جميعًا على وجه التفضل **﴿وما كان عطاء ربك﴾** وفضله **﴿محظورًا﴾** أي: ممنوعًا لا يمنعه من عاص لعصيانه **﴿انظر﴾** بعين الاعتبار **﴿كيف﴾** جعلناهم متفاوتين في التفضل، وفي الآخرة التفاوت أكبر؛ لأنها ثواب وأعواض وتفضل وكلها متفاوتة، وروي: أن قومًا من الأشراف فمن دونهم اجتمعوا بباب عمر رضي الله عنه، فخرج الإذن لبلال وصهيب، فشق على أبي سفيان، فقال سهيل بن عمرو: إنما أتينا من قبلنا، إنهم دعوا ودعينا يعني: إلى الإسلام، فاسرعوا وأبطأنا، وهذا باب عمر، فكيف التفاوت في الآخرة، ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعدّ الله لهم في الجنة أكثر. وقرئ*: وأكثر تفضيلاً، وعن بعضهم: أنها المباهي بالرفع منك في مجالس الدنيا أما ترغب في المباهاة بالرفع في مجالس الآخرة، وهي أكبر وأفضل.

لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾.

﴿فتقعد﴾ من قولهم: شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها حربة بمعنى: صارت يعني: فتصير جامعًا على نفسك الذم وما يتبعه من الهلاك من إلٰهك والخذلان والعجز عن النصرة ممن جعلته شريكًا له.

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾.

﴿وقضى ربك﴾ وأمر أمرًا مقطوعًا به **﴿ألا تعبدوا﴾** أن مفسرة ولا تعبدوا نهي أو بأن لا تعبدوا **﴿وبالوالدين إحسانًا﴾** وأحسنوا بالوالدين إحسانًا، أو بأن تحسنوا بالوالدين إحسانًا. وقرئ*: وأوصى، وعن ابن عباس

---

(1) قال الزيلعي: غريب جدًا 2/262.

(2) قال أحمد: ومثل ذلك التقييد ورد في الآية الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب﴾ فادخل من المبعضة على حرث الدنيا، ونحل الطالب حرث الآخرة مراده، وزاد عليه.

(3) رواه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (الحديث رقم: 1)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب: قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية» (الحديث رقم: 4904).

رضي الله عنهما: ووصى، وعن بعض ولد معاذ بن جبل: وقضاء ربك، ولا يجوز أن يتعلق الباء في بالوالدين بالإحسان؛ لأنّ المصدر لا يتقدّم عليه صلته ﴿إما﴾ هي إن الشرطية زيدت عليها ما تأكدا لها ولذلك دخلت النون المؤكدة في الفعل، ولو أفردت إن لم يصح دخولها لا تقول: إن تكرمن زيدًا يكرمك، ولكن إما تكرمنه و ﴿أحدهما﴾ فاعل يبلغنّ، وهو: فيمن قرأ يبلغان بدل من ألف الضمير الراجع إلى الوالدين و ﴿كلاهما﴾ عطف على أحدهما فاعلاً وبدلاً.

فإن قُلْتَ: لو قيل: إما يبلغان كلاهما. كان كلاهما توكيدًا لا بدلاً فمالك زعمت أنه بدل؟ **قُلْتُ:** لأنه معطوف على ما لا يصح أن يكون توكيدًا للاثنين فانتظم في حكمه فوجب أن يكون مثله.

فإن قُلْتَ: ما ضرّك لو جعلته توكيدًا مع كون المعطوف عليه بدلاً، وعطفت التوكيد على البدل؟ **قُلْتُ:** لو أريد توكيد التثنية لقيل: كلاهما فحسب، فلما قيل: أحدهما أو كلاهما علم أنّ التوكيد غير مراد فكان بدلاً مثل الأول ﴿أف﴾ صوت يدل على تضجر، وقرئ: أف بالحركات الثلاث منونًا وغير منون، الكسر على أصل البناء، والفتح تخفيف للضمة، والتشديد كثم، والضم اتباع كمنذ.

فإن قُلْتَ: ما معنى عندك؟ **قُلْتُ:** هو أن يكبرا ويعجزا وكانا كلاً على ولدهما لا كافل لهما غيره، فهما عنده في بيته وكنفه، وذلك أشق عليه وأشدّ احتمالاً وصبرًا، وربما تولي منهما ما كانا يتوليان منه في حال الطفولة، فهو مأمور بأن يستعمل معهما وطأة الخلق، ولين الجانب والاحتمال، حتى لا يقول ـ لهما إذا أضجره ما يستقذر منهما، أو يستثقل من مؤنهما أف فضلاً عما يزيد عليه، ولقد بالغ سبحانه في التوصية بهما حيث افتتحها بأن شفع الإحسان إليهما بتوحيده، ونظمهما في سلك القضاء بهما معًا، ثم ضيق الأمر في مراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت من المتضجر، مع موجبات الضجر ومقتضياته، ومع أحوال لا يكاد يدخل صبر الإنسان معها في الاستطاعة ﴿ولا تنهرهما﴾ ولا تزجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك، والنهي والنهر والنهم أخوات ﴿وقل لهما﴾ بدل التأفيف والنهر ﴿قولاً كريمًا﴾ جميلاً كما يقتضيه حسن الأدب والنزول على المروءة، وقيل: هو أن يقول: يا أبتاه يا أماه كما قال إبراهيم لأبيه: يا أبت مع كفره، ولا يدعوهما بأسمائهما، فإنه من الجفاء، وسوء الأدب، وعادة الدعار، قالوا: ولا بأس به في غير وجهه كما قالت عائشة رضي الله عنها: نحلني أبو بكر[1] كذا. وقرئ: جناح الذل والذل بالضم والكسر.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: ﴿جناح الذل﴾؟ **قُلْتُ:** فيه وجهان: أحدهما: أن يكون المعنى: واخفض لهما جناحك، كما قال: ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾[2] فأضافه إلى الذل أو الذلّ، كما أضيف حاتم إلى الجود على معنى: واخفض لهما جناحك الذليل أو الذلول، والثاني: أن تجعل لذله أو لذله لهما جناحًا خفيضًا، كما جعل لبيد للشمال: يدًا، وللقوّة: زمامًا مبالغة في التذلل.

وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾.

والتواضع لهما ﴿من الرحمة﴾ من فرط رحمتك لهما، وعطفك عليهما لكبرهما، وافتقارهما اليوم إلى من كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس، ولا تكتف برحمتك عليهما التي لا بقاء لها، وادع الله بأن يرحمهما الباقية، واجعل ذلك جزاء لرحمتهما عليك في صغرك وتربيتهما لك.

فإن قُلْتَ: الاسترحام لهما إنما يصح إذا كانا مسلمين **قُلْتُ:** وإذا كانا كافرين فله أن يسترحم لهما بشرط الإيمان، وأن يدعو الله لهما بالهداية والإرشاد، ومن الناس من قال: كان الدعاء للكفار جائزًا ثم نسخ، وسئل ابن عيينة عن الصدقة عن الميت، فقال: كل ذلك واصل إليه ولا شيء أنفع له من الاستغفار، ولو كان شيء أفضل منه لأمركم به في الأبوين، ولقد كرّر الله سبحانه في كتابه الوصية بالوالدين، وعن النبيّ ﷺ: «رضا الله في رضا الوالدين وسخطه في سخطهما»[3] وروي: يفعل البارّ ما يشاء أن يفعل فلن يدخل النار، ويفعل العاق ما يشاء أن يفعل فلن يدخل الجنة[4]، وروى سعيد بن المسيب أنّ البار لا يموت ميتة سوء، وقال رجل لرسول الله ﷺ: أنّ أبوي بلغا من الكبر أني ألي منهما ما وليا مني في الصغر فهل قضيتهما؟ قال: «لا، فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك، وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما»[5]. وشكا رجل إلى رسول الله ﷺ أباه وأنه يأخذ ماله، فدعا به، فإذا شيخ يتوكأ على عصا فسأله فقال: إنه كان ضعيفًا وأنا قوي، وفقيرًا، وأنا غني، فكنت لا أمنعه شيئًا من مالي، واليوم أنا ضعيف، وهو قوي، وأنا فقير وهو غني، ويبخل عليّ بماله فبكى رسول الله ﷺ وقال: «ما من حجر ولا مدر يسمع هذا إلا بكى، ثم قال للولد: أنت ومالك لأبيك، أنت ومالك لأبيك»، وشكا إليه آخر.[6] سوء خلق أمّه فقال: «لم تكن سيئة الخلق حين حملتك تسعة

---

(1) رواه مالك في الموطأ، كتاب: الأقضية، باب: ما لا يجوز من النحل، (الحديث رقم: 40).
(2) سورة الحجر، الآية: 88.
(3) رواه الترمذي في كتاب: «البر والصلة» باب ما جاء في الفضل في رضا الوالدين (الحديث رقم: 1899)، والحاكم في المستدرك 4/ = 152).
(4) رواه ابو نعيم في الحلية 10/216.
(5) لم يخرجه الزيلعي.
(6) أخرج نحوه الطبراني في معجمه الصغير ص 339 (الحديث رقم: 927).

أشهر» قال: إنها سيئة الخلق، قال: «لم تكن كذلك حين أرضعتك حولين» قال: إنها سيئة الخلق، قال: «لم تكن كذلك حين أسهرت لك ليلها، وأظمأت بهارها» قال: لقد جازيتها: قال: «ما فعلت»؟ قال: حججت بها على عاتقي. قال: «ما جزيتها ولو طلقة»[1] وعن ابن عمر أنه رأى رجلاً في الطواف يحمل أمّه ويقول:

إني لها مطية لا تذعر ... إذا الركاب نفرت لا تنفر

ما جملت وأرضعتني أكثر ... الله ربي نو الجلال الأكبر

تظنني جازيتها يا ابن عمر؟ قال: لا ولو زفرة واحدة[2]، وعنه عليه الصلاة والسلام: «إياكم وعقوق الوالدين، فإنّ الجنة توجد ريحها من مسيرة ألف عام، ولا يجد ريحها عاق، ولا قاطع رحم، ولا شيخ زان، ولا جارّ إزاره خيلاء، إنّ الكبرياء لله رب العالمين»[3]، وقال الفقهاء: لا يذهب بأبيه إلى البيعة وإذا بعث إليه منها ليحمله فعل، ولا يناوله الخمر ويأخذ الإناء منه إذا شربها، وعن أبي يوسف: إذا أمره أن يوقد تحت قدره وفيها لحم الخنزير أو قد. وعن حنيفة: أنه استأنن النبيّ ﷺ في قتل أبيه وهو في صف المشركين فقال: «دعه يليه غيرك»[4]. وسئل الفضيل بن عياض عن بر الوالدين فقال: أن لا تقوم إلى خدمتهما عن كسل، وسئل بعضهم فقال: أن لا ترفع صوتك عليهما، ولا تنظر شزرًا إليهما، ولا يريا منك مخالفة في ظاهر ولا باطن، وأن تترحم عليهما ما عاشا، وتدعو لهما إذا ماتا، وتقوم بخدمة أودّائهما من بعدهما، فعن النبيّ ﷺ: «إنّ من أبر البر أن يصل الرجل أهل ودّ أبيه»[5].

رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾.

﴿بما في نفوسكم﴾ بما في ضمائركم من قصد البر إلى الوالدين واعتقاد ما يجب لهما من التوقير ﴿إن تكونوا صالحين﴾ قاصدين الصلاح والبر، ثم فرطت منكم في حال الغضب، وعند حرج الصدر، وما لا يخلو منه البشر، أو لحمية الإسلام، هنة تؤدّي إلى أذاهما ثم أنبتم إلى الله واستغفرتم منها فإنّ الله غفور ﴿للأوّابين﴾ للتوّابين، وعن سعيد بن جبير: هي في البادرة تكون من الرجل إلى أبيه لا يريد بذلك إلا الخير، وعن سعيد بن المسيب: الأوّاب الرجل كلما أذنب بادر بالتوبة، ويجوز أن يكون هذا عامّاً لكل من فرطت منه جناية ثم تاب منها، ويندرج تحته الجاني على أبويه التائب من جنايته لوروده على أثره.

﴿وآت ذا القربى حقه﴾ وصى بغير الوالدين من الأقارب بعد التوصية بهما، وأن يؤتوا حقهم، وحقهم إذا كانوا محارم كالأبوين، والولد، وفقراء عاجزين عن الكسب وكان الرجل موسرًا أن ينفق عليهم عند أبي حنيفة، والشافعي لا يرى النفقة إلا على الولد والوالدين فحسب، وإن كانوا مياسير، أو لم يكونوا محارم كأبناء العمّ فحقهم صلتهم بالمودّة، والزيارة، وحسن المعاشرة، والمؤالفة على السراء والضراء، والمعاضدة ونحو ذلك ﴿والمسكين وابن السبيل﴾ يعني: وآت هؤلاء حقهم من الزكاة، وهذا دليل على أن المراد بما يؤتي ذوي القرابة من الحق هو تعهدهم بالمال، وقيل: أراد بذي القربى: أقرباء رسول الله ﷺ.

إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾.

التبذير تفريق المال فيما لا ينبغي وإنفاقه على وجه الإسراف، وكانت الجاهلية تنحر إبلها وتتياسر عليها وتبذر أموالها في الفخر والسعة وتنكر ذلك في أشعارها فأمر الله بالنفقة في وجوهها مما يقرب منه ويزلف، وعن عبد الله: هو إنفاق المال في غير حقه، وعن مجاهد: لو أنفق مدًّا في باطل كان تبذيرًا، وقد أنفق بعضهم نفقة في خير فأكثر، فقال له صاحبه: لا خير في السرف فقال: لا سرف في الخير، وعن عبد الله بن عمرو: مرّ رسول الله ﷺ بسعد وهو يتوضأ فقال: «ما هذا السرف يا سعد»؟ قال: أوفي الوضوء سرف؟ قال: «نعم وإن كنت على نهر جار»[6] ﴿إخوان الشياطين﴾ أمثالهم في الشرارة وهي غاية المذمّة؛ لأنه لا شرّ من الشيطان، أوهم إخوانهم وأصدقاؤهم؛ لأنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الإسراف، أوهم قرناؤهم في النار على سبيل الوعيد ﴿وكان الشيطان لربه كفورًا﴾ فما ينبغي أن يطاع فإنه لا يدعو إلا إلى مثل فعله، وقرأ الحسن: إخوان الشيطان.

وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾.

وإن أعرضت عن ذي القربى والمسكين، وابن السبيل، حياء من الردّ ﴿فقل لهم قولا ميسورًا﴾ فلا تتركهم غير مجابين إذا سألوك، وكان النبي ﷺ إذا سئل شيئًا وليس عنده أعرض عن السائل وسكت حياء[7] قوله: ﴿ابتغاء

(1) لم يخرجه الزيلعي.

(2) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في بر الوالدين فضل «في حفظ حق الوالدين بعد موتهما» (الحديث رقم: 7976)، والبخاري في الأدب المفرد 1/62 باب جزاء الوالدين (الحديث رقم: 11).

(3) رواه الطبراني في الأوسط وابن عدي في الكامل.

(4) لم يخرجه الزيلعي.

(5) رواه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل صلة أصدقاء الأب والأم (الحديث رقم: 6460).

(6) رواه ابن ماجه في كتاب: الطهارة وسننها، باب ما جاء في القصد في الوضوء وكراهية التعدي فيه (الحديث رقم: 425) وأحمد في المسند (2/226).

(7) رواه الحاكم في المستدرك 3/130.

رحمة من ربك﴾ إمّا أن يتعلق بجواب الشرط مقدّمًا عليه أي: فقل لهم قولاً سهلاً لينًا، وعدهم وعدًا جميلاً رحمة لهم وتطييبًا لقلوبهم ابتغاء رحمة من ربك أي: ابتغ رحمة الله التي ترجوها برحمتك عليهم، وإما أن يتعلق بالشرط أي: وإن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح لك فسمى الرزق رحمة، فردّهم ردًّا جميلاً، فوضع الابتغاء موضع الفقد؛ لأنّ فاقد الرزق مبتغ له، فكان الفقد سبب الابتغاء والابتغاء مسببًا عنه فوضع المسبب موضع السبب، ويجوز أن يكون معنى: **﴿وإمّا تعرضنّ عنهم﴾** وإن لم تنفعهم ولم ترفع خصاصتهم لعدم الاستطاعة، ولا يريد الإعراض بالوجه كناية بالإعراض عن ذلك؛ لأن من أبى أن يعطي أعرض بوجهه. يقال: يسر الأمر وعسر مثل سعد الرجل نحس فهو مفعول، وقيل معناه: فقل لهم: رزقنا الله وإياكم من فضله على أنه دعاء لهم ييسر عليهم فقرهم، كأن معناه: قولاً ذا ميسور وهو: اليسر أي: دعاء فيه يسر.

هذا تمثيل لمنع الشحيح وإعطاء المسرف وأمر بالاقتصاد الذي هو بين الإسراف والتقتير **﴿فتقعد ملومًا﴾** فتصير ملومًا عند الله؛ لأنّ المسرف غير مرضي عنده وعند الناس يقول المحتاج: أعطي فلانًا وحرمني، ويقول المستغني: ما يحسن تدبير أمر المعيشة، وعند نفسك إذا احتجت فندمت على ما فعلت **﴿محسورًا﴾** منقطعًا بك لا شيء عندك من حسرة السفر إذا بلغ منه وحسره بالمسألة، وعن جابر: بينا رسول الله ﷺ جالس أتاه صبي فقال: إنّ أمي تستكسيك درعًا فقال: «من ساعة إلى ساعة يظهر فعد إلينا، فذهب إلى أمّه فقالت له: قل له إن أمي تستكسيك الدرع الذي عليك «فدخل داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عريانًا»، وأذن بلال وانتظروا فلم يخرج للصلاة[1]، وقيل: أعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل وعيينة بن حصن، فجاء عباس بن مرداس وأنشأ يقول:

أتجعل نهبي ونهب العبيـ ... ـد بين عيينه والأقرع

وما كان حصن ولا حابس ... يفوقان جدي في مجمع

وما كنت دون امرئ منهما ... ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال: «يا أبا بكر اقطع لسانه عني، اعطه مائة من الإبل»[2] فنزلت. ثم سلا رسول الله ﷺ عما كان يرهقه من الإضافة، بأنّ ذلك ليس لهوان منك عليه ولا لبخل به عليك، ولكن لأنّ مشيئته في بسط الأرزاق وقدرها تابعة للحكمة والمصلحة، ويجوز أن يريد أن البسط والقبض إنما هما من أمر الله الذي الخزائن في يده، فأما العبيد فعليهم أن يقتصدوا، ويحتمل أنه عزّ وعلا بسط لعباده أو قبض فإنه يراعي أوسط الحالين لا يبلغ بالمبسوط له غاية مراده ولا بالمقبوض عليه أقصى مكروهه فاستنوا بسنته.

وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً ۖ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾.

قتلهم أولادهم هو وأدهم بناتهم كانوا يئدونهنّ خشية الفاقة وهي الإملاق فنهاهم الله وضمن لهم أرزاقهم. وقرئ*: خشية بكسر الخاء. وقرئ*: خطأ وهو الإثم يقال: خطئ خطأ كاثم إثمًا، وخطأ وهو ضد الصواب اسم من أخطأ، وقيل: هو والخطء كالحذر والحذر، وخطاء بالكسر والمد، وخطاء بالفتح والمد وخطأ بالفتح والسكون، وعن الحسن: خطا بالفتح وحذف الهمزة كالخب، وعن أبي رجاء: بكسر الخاء غير مهموز **﴿فاحشة﴾** قبيحة زائدة على حد القبح **﴿وساء سبيلا﴾** وبئس طريقًا طريقه وهو أن تغصب على غيرك امرأته أو أخته أو بنته من غير سبب، والسبب ممكن وهو الصهر الذي شرعه الله.

وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾.

﴿إلا بالحق﴾ إلا بإحدى ثلاث إلا بأن تكفر، أو تقتل مؤمنًا عمدًا، أو تزني بعد إحصان **﴿مظلومًا﴾** غير راكب واحدة منهنّ **﴿لوليه﴾** الذي بينه وبينه قرابة توجب المطالبة بدمه، فإن لم يكن له ولي فالسلطان وليه **﴿سلطانًا﴾** تسلطًا على القاتل في الاقتصاص منه، أو حجة يثب بها عليه **﴿فلا يسرف﴾** الضمير للولي أي: فلا يقتل غير القاتل، ولا اثنين والقاتل واحد، كعادة الجاهلية كان إذا قتل منهم واحد قتلوا به جماعة حتى قال مهلهل حين قتل بجير بن الحرث بن عباد: وبشسع نعل كلب وقال:

كل قتيل في كليب غرة ... حتى ينال القتل آل مرة

وكانوا يقتلون غير القاتل إذا لم يكن بواء، وقيل: الإسراف المثلة، وقرأ أبو مسلم صاحب الدولة: فلا يسرف بالرفع على أنه خبر في معنى الأمر وفيه مبالغة ليست في الأمر، وعن مجاهد أنّ الضمير للقاتل الأوّل، وقرئ*: فلا تسرف على خطاب الولي، أو قاتل المظلوم، وفي قراءة أبيّ: فلا تسرفوا رده علي ولا تقتلوا **﴿إنه كان منصورًا﴾** الضمير إمّا للولي يعني: حسبه أنّ الله قد نصره بأن أوجب له القصاص فلا يستزد على ذلك، وبأنّ الله قد نصره بمعونة السلطان، وبإظهار المؤمنين على استيفاء الحق فلا يبغ ما وراء حقه، وإمّا للمظلوم؛ لأنّ الله ناصره وحيث أوجب القصاص بقتله وينصره في الآخرة؟ الثواب وإمّا للذي يقتله الولي بغير حق ويسرف في قتله فإنه منصور

(1) لم يخرجه الزيلعي.

(2) رواه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام.. (الحديث رقم: 2440).

بإيجاب القصاص على المسرف.

وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾.

﴿بالتي هي أحسن﴾ بالخصلة أو الطريقة التي هي أحسن وهي حفظه عليه وتثميره **﴿إنّ العهد كان مسؤولاً﴾**[1] أي: مطلوبًا يطلب من المعاهد أن لا يضيعه ويفي به، ويجوز أن يكون تخييلاً كأنه يقال للعهد: لم نكثت وهلاّ وفي بك تبكيتًا للناكث، كما يقال للموؤدة: ﴿بأي ذنب قتلت﴾[2]؟ ويجوز أن يراد أنّ صاحب العهد كان مسؤولاً.

وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾.

قرئ: **﴿بالقسطاس﴾** بالضم والكسر وهو: القرسطون وقيل كل ميزان صغر أو كبر من موازين الدراهم وغيرها **﴿وأحسن تأويلاً﴾** وأحسن عاقبة وهو: تفعيل من آل إذا رجع وهو ما يؤول إليه.

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾.

﴿ولا تقف﴾ ولا تتبع وقرئ: ولا تقف يقال: قفا أثره وقافه، ومنه القافة يعني: ولا تكن في اتباعك ما لا علم لك به من قول، أو فعل كمن يتبع مسلكًا لا يدري أنه يوصله إلى مقصده فهو: ضال، والمراد النهي عن أن يقول الرجل ما لا يعلم وأن يعمل بما لا يعلم، ويدخل فيه النهي عن التقليد دخولاً ظاهرًا لأنه اتباع لما لا يعلم صحته من فساده، وعن ابن الحنفية: شهادة الزور وعن الحسن: لا تقف أخاك المسلم إذا مر بك فتقول: هذا يفعل كذا، ورأيته يفعل، وسمعته، ولم تر ولم تسمع، وقل: القفو شبيه بالعضيهة ومنه الحديث: «من قفى مؤمنًا بما ليس فيه حبسه الله في ردغة الخبال حتى يأتي بالمخرج»[3] وأنشد:

ومثل الدمى شم الغرانين ساكن بهنّ الحياء لا يشعن التقافيا

أي: التقانف، وقال الكميت:

ولا أرمي البريّ بغير ذنب ولا أقفو الحواصن إن قفينا

وقد استدل به مبطل الاجتهاد ولم يصح؛ لأنّ ذلك نوع من العلم، فقد أقام الشرع غالب الظن مقام العلم وأمر بالعمل به **﴿أولئك﴾** إشارة إلى السمع والبصر والفؤاد كقوله:

والعيش بعد أولئك الأيام

و **﴿عنه﴾** في موضع الرفع بالفاعلية أي: كل واحد منها كان مسؤولاً عنه، فمسؤول مسند إلى الجار والمجرور كالمغضوب في قوله: ﴿غير المغضوب عليهم﴾[4]. يقال للإنسان: لم سمعت ما لم يحل لك سماعه؟ ولم نظرت إلى ما لم يحل لك النظر إليه؟ ولم عزمت على ما لم يحل لك العزم عليه؟ وقرئ: والفواد بفتح الفاء والواو قلبت الهمزة واوًا بعد الضمة في الفؤاد ثم استصحب القلب مع الفتح.

وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾.

﴿مرحًا﴾ حال أي: ذا مرح وقرئ: مرحًا، وفضل الأخفش المصدر على اسم الفاعل لما فيه من التأكيد **﴿لن تخرق الأرض﴾** لن تجعل فيها خرقًا[5] بدوسك لها وشدّة وطأتك، وقرئ: لن تخرق بضم الراء **﴿ولن تبلغ الجبال طولاً﴾** بتطاولك وهو تهكم بالمختال.

كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾.

قرئ: سيئة وسيئه على إضافة سيء إلى ضمير كل، وسيأ في بعض المصاحف، وسيآت وفي قراءة أبي بكر الصديق رضي الله عنه: كان شأنه.

فإن قُلْتَ: كيف قيل **﴿سيئه﴾** مع قوله: **﴿مكروهًا﴾**؟ **قُلْتُ:** السيئة في حكم الأسماء بمنزلة الذنب والإثم، زال عنه حكم الصفات فلا اعتبار بتأنيثه ولا فرق بين من قرأ: سيئة وسيأ، الا تراك تقول: الزنا سيئة كما تقول: السرقة سيئة، فلا تفرق بين إسنادها إلى مذكر ومئنث.

فإن قُلْتَ: فما ذكر من الخصال بعضها سيء وبعضها حسن، ولذلك قرأ من قرأ سيئه بالإضافة، فما وجه من قرأ سيئه؟ **قُلْتُ:** كل ذلك إحاطة بما نهى عنه خاصة، لا بجميع الخصال المعدودة.

ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾.

---

(1) قال أحمد: كلام حسن، إلا لفظة التخييل، فقد تقدّم إنكارها عليه، وينبغي أن يعوض بالتمثيل، والظاهر التأويل الأوّل، ويكون المجرور الذي هو عنه حذف تخفيفاً، وقد ذكر في بقية الآي: ﴿كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾ والله أعلم، ويعضد تأويل سؤال العهد نفسه، على وجه التمثيل، وقوف الرحم بين يدي الله، وسؤالها فيمن وصلها وقطعها، وقدورد ذلك في الحديث الصحيح، والله الموفق.

(2) سورة التكوير، الآية: 9.

(3) رواه الإمام أحمد في مسنده 2/82 وأبو داود في كتاب: الأقضية، باب: فيمن يغبن على خصومة.

(4) سورة الفاتحة، الآية: 7.

(5) قال أحمد: وفي هذا التهكم والتقريع، لمن يعتاد هذه المشيئة، كفاية في الانزجار عنها، ولقد حفظ الله عوام زماننا عن هذه المشية، وتورط فيها قراؤنا وفقهاؤنا، بينا أحدهم قد عرف مسيئتين، أو أجلس بين يديه طالبين، أو شد طرفاً من رياسة الدنيا، إذا هو يتبختر في مشيه، ويترجع، ولا يرى أنه يطاول الجبال، ولكن يحك بيافوخه عنان السماء، كأنهم يمرون عليها وهم عنها معرضون، وماذا يفيده أن يقرأ القرآن، أو يقرأ عليه، وقلبه، عن تدبره على مراحل، والله وليّ التوفيق.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما تقدّم من قوله: ﴿لا تجعل مع الله إلٰهًا آخر﴾[1] إلى هذه الغاية، وسماه حكمة؛ لأنه كلام محكم لا مدخل فيه للفساد بوجه، وعن ابن عباس: هذه الثماني عشرة آية كانت في ألواح أوّلها ﴿لا تجعل مع الله إلٰهًا آخر﴾[2] قال الله تعالى: ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة﴾[3] وهي عشر آيات في التوراة، ولقد جعل الله فاتحتها وخاتمتها النهي عن الشرك؛ لأن التوحيد هو رأس كل حكمة وملاكها، ومن عدمه لم تنفعه حكمه وعلومه وإن بذّ فيها الحكماء وحك بيافوخه السماء، وما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحكم وهم عن دين الله أضلّ من النعم.

أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾.

﴿أفاصفاكم﴾ خطاب للذين قالوا: الملائكة بنات الله، والهمزة للإنكار يعني: أفخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد، وهم: البنون ولم يجعل فيهم نصيبًا لنفسه، واتخذا دونهم وهي: البنات، وهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعادتكم، فإن العبيد لا يؤثرون بأجود الأشياء وأصفاها من الشوب ويكون أرداها وأدونها للسادات ﴿إنكم لتقولون قولاً عظيمًا﴾ بإضافتكم إليه الأولاد وهي خاصة بالأجسام، ثم بأنكم تفضلون عليه أنفسكم حيث تجعلون له ما تكرهون، ثم بأن تجعلوا الملائكة وهم أعلى خلق الله وأشرفهم أدون خلق الله وهم: الإناث.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ ۚ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾.

﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن﴾ يجوز يريد بهذا القرآن إبطال إضافتهم إلى الله البنات؛ لأنه مما صرفه وكرّر ذكره، والمعنى: ولقد صرفنا القول في هذا المعنى، أو أوقعنا التصريف فيه وجعلناه مكانًا للتكرير، ويجوز أن يشير بهذا القرآن إلى التنزيل ويريد ولقد صرفنا يعني: هذا المعنى في مواضع من التنزيل فترك الضمير لأنه معلوم. وقرئ: صرفنا بالتخفيف وكذلك ﴿ليذكروا﴾ قرئ: مشدّدًا ومخففًا أي: كررناه ليتعظوا ويعتبروا ويطمئنوا إلى ما يحتج به عليهم ﴿فما يزيدهم إلا نفورًا﴾ عن الحق وقلة طمانينة إليه، وعن سفيان كان إذا قراها قال: زادني لك خضوعًا ما زاد أعداءك نفورًا.

قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾.

قرئ: كما تقولون بالتاء والياء و ﴿إذًا﴾ دالة على أن ما بعدها وهو: لابتغوا جواب عن مقاتلة المشركين وجزاء للو ومعنى ﴿لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾ لطلبوا إلى من له الملك والربوبية سبيلاً بالمغالبة كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض، كقوله: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾[4] وقيل لتقرّبوا إليه كقوله: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة﴾[5].

سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾.

﴿علوًا﴾ في معنى: تعاليًا، والمراد: البراءة عن ذلك والنزاهة. ومعنى وصف العلوّ بالكبر: المبالغة في معنى البراءة، والبعد مما وصفوه به.

تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾.

والمراد[6]: أنها تسبح له بلسان الحال حيث تدل على الصانع وعلى قدرته وحكمته، فكأنها تتعلق بذلك، وكأنها تنزه الله عز وجلّ مما لا يجوز عليه من الشركاء وغيرها.

فإن قُلْتَ: فما تصنع بقوله: ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ وهذا التسبيح مفقوه معلوم؟ **قُلْتُ:** الخطاب للمشركين وهم وإن كانوا إذا سئلوا عن خالق السمٰوات والأرض، قالوا: الله، إلا أنهم لما جعلوا معه آلهة مع إقرارهم،

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 22.
(2) سورة الإسراء، الآية: 22.
(3) سورة الأعراف، الآية: 145.
(4) سورة الأنبياء، الآية: 22.
(5) سورة الإسراء، الآية: 57.
(6) قال أحمد: ولقائل أن يقول: فما يصنع بقوله: ﴿كان حليماً غفوراً﴾ وهو لا يغفر للمشركين، ولا يتجاوز عن جهلهم، وكفرهم، وإشراكهم، وإنما يخاطب بهاتين الصفتين المؤمنون، والظاهر أن المخاطب المؤمنون، وأما عدم فقههم للتسبيح الصادر من الجمادات، فكأنه والله أعلم، من عدم العمل بمقتضى ذلك، فإن الإنسان لو تيقظ حق التيقظ إلى أن النملة والبعوضة وكل ذرة من = نرات الكون تسبح الله، وتنزهه، وتشهد بجلاله، وكبريائه، وقهره، وعمر خاطره بهذا الفهم، لكاد ذلك يشغله عن القوت، فضلاً عن فضول الكلام والأفعال، والعاكف على الغيبة التي هي فاكهتنا في زماننا هذا، لو استشعر حال إفاضته فيها، إن كل ذرة وجوهر من نرات لسانه الذي يلقلقه في سخط الله تعالى عليه مشغولة، مملوءة بتقديس الله تعالى وتسبيحه وتخويف عقابه وإرهاب جبروته وتيقظ لذلك حق التيقظ لكادان لا يتكلم بقية عمره، فالظاهر والله أعلم، أنّ الآية إنما وردت خطاباً على الغالب في أحوال الغافلين، وإن كانوا مؤمنين، والله الموفق، فالحمد لله الذي كان حليماً غفوراً.

فكأنهم لم ينظروا ولم يقرّوا؛ لأنّ نتيجة النظر الصحيح والإقرار الثابت خلاف ما كانوا عليه، فإذًا لم يفقهوا التسبيح ولم يستوضحوا الدلالة على الخالق.

فإن قُلْتَ[1]: من فيهنّ يسبحون على الحقيقة وهم: الملائكة والثقلان وقد عطفوا على السمٰوات والأرض فما وجهه؟ **قُلْتُ**: التسبيح المجازي حاصل في الجميع فوجب الحمل عليه وإلا كانت الكلمة الواحدة في حالة واحدة محمولة على الحقيقة والمجاز **﴿إنه كان حليمًا غفورًا﴾** حين لا يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وسوء نظركم وجهلكم بالتسبيح وشرككم.

﴿حجابًا مستورًا﴾ ذا ستر كقولهم: سيل مفعم ذو إفعام، وقيل: هو حجاب لا يرى فهو مستور، ويجوز أن يراد: أنه حجاب من دونه حجاب، أو حجب، فهو مستور بغيره، أو حجاب يستر أن يبصر، فكيف يبصر المحتجب به، وهذه حكاية لما كانوا يقولونه: **﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب﴾**[2] كأنه قال: وإذا قرأت القرآن جعلنا على زعمهم **﴿أن يفقهوه﴾** كراهة أن يفقهوه، أو لأنّ قوله: وجعلنا على قلوبهم أكنة فيه معنى: المنع من الفقه فكأنه قيل: ومنعناهم أن يفقهوه. يقال: وحد يحد وحدًا وحدة نحو وعد يعد وعدًا وعدة **﴿وحده﴾** من باب رجع عوده على بدئه وافعله جهدك وطاقتك في أنه مصدر سادّ مسدّ الحال أصله يحد وحده بمعنى: واحدًا أو حده. والنفور مصدر بمعنى التولية، أو جمع نافر كقاعد وقعود أي: يحبون أن تنكر معه آلهته لأنهم مشركون، فإذا سمعوا بالتوحيد نفروا **﴿بما يستمعون به﴾** من الهزؤ بك وبالقرآن ومن اللغو، كان يقوم عن يمينه إذا قرأ رجلان من عبد الدار، ورجلان منهم عن يساره، فيصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار، و**﴿به﴾** في موضع الحال كما نقول: يستمعون بالهزؤ أي: هازئين و**﴿إذ يستمعون﴾** نصب بأعلم أي: أعلم وقت استماعهم بما به يستمعون **﴿وإذ هم نجوى﴾** وبما يتناجون به إذ هم ذوو نجوى **﴿إذ يقول﴾** بدل من إذ هم **﴿مسحورًا﴾** سحر فجنّ، وقيل: هو من السحر وهو الرئة أي: هو بشر مثلكم.

﴿ضربوا لك الأمثال﴾ مثلوك بالشاعر والساحر والمجنون **﴿فضلوا﴾** في جميع ذلك ضلال من يطلب في التيه طريقًا يسلكه فلا يقدر عليه فهو متحير في أمره لا يدري ما يصنع.

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾.

لما قالوا: **﴿أئذا كنا عظامًا﴾** قيل لهم **﴿كونوا حجارة أو حديدًا﴾** فردّ قوله: كونوا على قولهم كنا كأنه قيل: كونوا حجارة أو حديدًا ولا تكونوا عظامًا فإنه يقدر على إحيائكم والمعنى: أنكم تستبعدون أن يجدد الله خلقكم ويرده إلى حال الحياة وإلى رطوبة الحي وغضاضته بعد ما كنتم عظامًا يابسة، مع أنّ العظام بعض أجزاء الحيّ بل هي عمود خلقه الذي يبني عليه سائره، فليس ببدع أن يردها الله بقدرته إلى حالتها الأولى، ولكن لو كنتم أبعد شيء من الحياة ورطوبة الحي ومن جنس ما ركب منه البشر وهو: أن تكونوا حجارة يابسة أو حديدًا، مع أنّ طباعها الجساوة والصلابة، لكان قادرًا على أن يردكم إلى حال الحياة **﴿أو خلقًا مما يكبر في صدوركم﴾** يعني: أو خلقًا مما يكبر عندكم عن قبول الحياة ويعظم في زعمكم على الخالق إحياؤه فإنه يحييه، وقيل: ما يكبر في صدوركم الموت، وقيل: السمٰوات والأرض **﴿فسينغضون﴾** فسيحرّكونها نحوك تعجبًا واستهزاء.

يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾.

والدعاء والاستجابة كلاهما مجاز، والمعنى: يوم يبعثكم فتتبعثون مطاوعين منقادين لا تمتنعون وقوله: **﴿بحمده﴾** حال منهم أي: حامدين وهي مبالغة في انقيادهم للبعث، كقولك لمن تأمره بركوب ما يشقّ عليه فيتأبى ويتمنع: ستركبه وأنت حامد شاكر يعني: أنك تحمل عليه وتفسر قسرًا، حتى أنك تلين لين المسمح الراغب الحامد عليه، وعن سعيد بن جبير: ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك **﴿وتظنون﴾** وترون الهول، فعنده تستقصرون مدّة لبثكم في الدنيا وتحسونها يومًا أو بعض يوم، وعن قتادة: تحاقرت الدنيا في أنفسهم حين عاينوا الآخرة.

وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾.

﴿وقل لعبادي﴾ وقل للمؤمنين **﴿يقولوا﴾** للمشركين الكلمة **﴿التي هي أحسن﴾** والين ولا يخاشنوهم كقوله: **﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾**[3] وفسر التي هي أحسن بقوله: **﴿ربكم أعلم بكم إن يشا يرحمكم أو إن يشا يعذبكم﴾** يعني: يقولوا لهم هذه الكلمة ونحوها، ولا يقولوا لهم: إنكم من أهل النار، وإنكم معذبون، وما أشبه ذلك مما

---

(1) قال أحمد: وقد تقدّم نقلي عنه، أنه يابى حمل اللفظ على حقيقته، ومجازه دفعة واحدة عند آية السجدة في النحل، ولكن ظهر من كلامه، ثم جعل السجود عبارة عن الانقياد، وعدم الامتناع على القدرة، ليكون متناولاً، ولا للمكلفين وغير المكلفين بطريق التواطؤ،= وقد يكون أراد: ثم المجاز، والله الموفق.

(2) سورة فصلت، الآية: 5.

(3) سورة النحل، الآية: 125.

يغيظهم ويهيجهم على الشر، وقوله: ﴿إن الشيطان ينزغ بينهم﴾ اعتراض يعني: يلقي بينهم الفساد ويغري بعضهم على بعض ليقع بينهم المشارة والمشاقة ﴿وما أرسلناك عليهم وكيلاً﴾ أي: ربًا موكولاً إليك أمرهم تقسرهم على الإسلام وتجبرهم عليه، وإنما أرسلناك بشيرًا ونذيرًا، فدارهم ومر أصحابك بالمداراة والاحتمال وترك المحاقة والمكاشفة، وذلك قبل نزول آية السيف، وقيل: نزلت في عمر رضي الله عنه شتمه رجل، فأمره الله بالعفو. وقيل: أفرط إيذاء المشركين للمسلمين، فشكوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت، وقيل: الكلمة التي هي أحسن أن يقولوا يهديكم الله يرحمكم الله. وقرأ طلحة: ينزغ بالكسر، وهما لغتان: نحو يعرشون ويعرشون.

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾.

هو ردّ على أهل مكة في إنكارهم واستبعادهم أن يكون يتيم أبي طالب نبيًا، وأن تكون العراة الجوّع أصحابه كصهيب وبلال وخباب وغيرهم دون أن يكون ذلك في بعض أكابرهم وصناديدهم يعني: وربك أعلم بمن في السمٰوات والأرض وبأحوالهم ومقاديرهم وبما يستاهل كل واحد منهم، وقوله: ﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾ إشارة إلى تفضيل رسول الله ﷺ، وقوله: ﴿وآتينا داود زبورًا﴾ دلالة على وجه تفضيله وهو أنه خاتم الأنبياء وأن أمته خير الأمم؛ لأنّ ذلك مكتوب في زبور داود، وقال الله تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾[1] وهم محمد وأمته.

فإن قُلْتَ: هلا عرف الزبور كما عرف في قوله: ﴿ولقد كتبنا في الزبور﴾؟[2] **قُلْتُ:** يجوز أن يكون الزبور وزبور كالعباس وعباس والفضل وفضل، وأن يريد وآتينا داود بعض الزبر وهي الكتب، وأن يريد ما ذكر فيه رسول الله ﷺ من الزبور، فسمى ذلك زبورًا لأنه بعض الزبور كما سمي بعض القرآن قرآنًا.

قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾.

هم الملائكة، وقيل: عيسى ابن مريم، وعزير، وقيل: نفر من الجن عبدهم ناس من العرب ثم أسلم الجن ولم يشعروا. أي: ادعوهم فهم لا يستطيعون أن يكشفوا عنكم الضر من مرض أو فقر أو عذاب، ولا أن يحولوه من واحد إلى آخر أو يبدلوه و ﴿أولئك﴾ مبتدأ و ﴿الذين يدعون﴾ صفته و ﴿يبتغون﴾ خبره يعني: أن آلهتهم أولئك يبتغون الوسيلة وهي: القربة إلى الله تعالى و ﴿أيهم﴾ بدل من واو يبتغون، وأي موصولة أي: يبتغي من هو أقرب منهم وأزلف الوسيلة إلى الله فكيف بغير الأقرب. أو ضمن يبتغون الوسيلة معنى يحرصون، فكأنه قيل: يحرصون أيهم يكون أقرب إلى الله وذلك بالطاعة وازدياد الخير والصلاح ﴿ويرجون﴾ ويخافون كما غيرهم من عباد الله فكيف يزعمون أنهم آلهة ﴿إن عذاب ربك كان﴾ حقيقًا بأن يحذره كل أحد من ملك مقرب ونبي مرسل فضلاً عن غيرهم.

وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾.

﴿نحن مهلكوها﴾ بالموت والاستئصال ﴿أو معذبوها﴾ بالقتل وأنواع العذاب وقيل: الهلاك للصالحة والعذاب للطالحة، وعن مقاتل: وجدت في كتب الضحاك بن مزاحم في تفسيرها: أما مكة فيخربها الحبشة، وتهلك المدينة بالجوع، والبصرة بالغرق، والكوفة بالترك، والجبال بالصواعق والرواجف، وأما خراسان فعذابها ضروب، ثم نكرها بلدًا بلدًا ﴿في الكتاب﴾ في اللوح المحفوظ.

وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾.

استعير المنع لترك إرسال الآيات من أجل صارف الحكمة. وأن الأولى منصوبة والثانية مرفوعة تقديره: وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأوّلين، والمراد الآيات التي اقترحتها قريش من قلب الصفا ذهبًا، ومن إحياء الموتى وغير ذلك، وعادة الله في الأمم أن من اقترح منهم آية فأجيب إليها ثم لم يؤمن أن يعاجل بعذاب الاستئصال، فالمعنى: وما صرفنا عن إرسال ما يقترحونه من الآيات إلا أن كذب بها الذين هم أمثالهم من المطبوع على قلوبهم كعاد وثمود، وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك وقالوا: ﴿هذا سحر مبين﴾[3] كما يقولون في غيرها، واستوجبوا العذاب المستأصل، وقد عزمنا أن نؤخر أمر من بعثت إليهم إلى يوم القيامة. ثم ذكر من تلك الآيات التي اقترحها الأوّلون ثم كذبوا بها لما أرسلت فأهلكوا واحدة وهي ناقة صالح؛ لأنّ آثار هلاكهم في بلاد العرب قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم ﴿مبصرة﴾ بينة، وقرئ: مبصرة بفتح الميم ﴿فظلموا بها﴾ فكفروا بها ﴿وما نرسل بالآيات﴾ إن أراد بها الآيات المقترحة فالمعنى: لا نرسلها ﴿إلا تخويفًا﴾ من نزول العذاب العاجل كالطليعة والمقدّمة له، فإن لم يخافوا وقع عليهم. وإن أراد غيرها فالمعنى: وما نرسل ما نرسل من الآيات كآيات القرآن وغيرها إلا تخويفًا وإنذارًا بعذاب الآخرة.

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ

(1) سورة الأنبياء، الآية: 105.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 105.

(3) بعض آية ورد في سبعة مواضع من القرآن منها: سورة المائدة، الآية: 110.

إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾.

﴿وإذ قلنا لك إنّ ربك أحاط بالناس﴾ وانكر إذ أوحينا إليك أن ربك أحاط بقريش يعني: بشرناك بوقعة بدر وبالنصرة عليهم ونلك قوله: **﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾**[1] **﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون﴾**[2] وغير ذلك، فجعله كأن قد كان ووجد، فقال: أحاط بالناس على عادته في إخباره، وحين تزاحف الفريقان يوم بدر والنبي ﷺ في العريش مع أبي بكر رضي الله عنه كان يدعو ويقول: «اللهم إني أسألك عهدك ووعدك». ثم خرج وعليه الدرع يحرض الناس ويقول: «سيهزم الجمع ويولون الدبر». ولعلّ الله تعالى أراه مصارعهم في منامه، فقد كان يقول حين ورد ماء بدر «والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم وهو يوميء إلى الأرض ويقول: هذا مصرع فلان هذا مصرع فلان»، فتسامعت قريش بما أوحي إلى رسول الله ﷺ من أمر يوم بدر وما أري في منامه من مصارعهم، فكانوا يضحكون ويستسخرون ويستعجلون به استهزاء[3]، وحين سمعوا بقوله[4]: **﴿إنّ شجرة الزقوم * طعام الأثيم﴾**[5] جعلوها سخرية وقالوا: إن محمدًا يزعم أنّ الجحيم تحرق الحجارة ثم يقول ينبت فيها الشجر! وما قدر الله حق قدره من قال ذلك، وما أنكروا وأن يجعل الله الشجرة من جنس لا تأكله النار، فهذا وبر السمندل وهو دويبة ببلاد الترك تتخذ منه مناديل إذا اتسخت طرحت في النار فذهب الوسخ وبقي المنديل سالمًا لا تعمل فيه النار، وترى النعامة تبتلع الجمر وقطع الحديد الحمر كالجمر بإحماء النار فلا تضرها، ثم أقرب من ذلك أنه خلق في كل شجرة نارًا فلا تحرقها، فمن أنكروا أن يخلق في النار شجرة لا تحرقها والمعنى: أنّ الآيات إنما يرسل بها تخويفًا للعباد، وهؤلاء قد خوفوا بعذاب الدنيا، وهو القتل يوم بدر. فما كان ما **﴿أريناك﴾** منه في منامك بعد الوحي إليك **﴿إلا فتنة﴾** لهم حيث اتخذوه سخريًا، وخوّفوا بعذاب الآخرة وشجرة الزقوم فما أثر فيهم، ثم قال فيهم **﴿ونخوفهم﴾** أي: نخوفهم بمخاوف الدنيا والآخرة **﴿فما يزيدهم﴾** التخويف **﴿إلا طغيانًا كبيرًا﴾** فكيف يخاف قوم هذه حالهم بإرسال ما يقترحون من الآيات[6]، وقيل الرؤيا هي: الإسراء، وبه تعلق من يقول: كان الإسراء في المنام، ومن قال كان في اليقظة فسر الرؤيا بالرؤية، وقيل: إنما سماها رؤيا على قول المكذبين حيث قالوا له: لعلها رؤيا رأيتها وخيال خيل إليك استبعادًا منهم، كما سمى أشياء بأساميها عند الكفرة نحو قوله: **﴿فراغ إلى آلهتهم﴾**[7] **﴿أين شركائي﴾**[8] **﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾**[9] وقيل: هي رؤياه أنه سيدخل مكة، وقيل: رأى في المنام أن ولد الحكم يتداولون منبره كما يتداول الصبيان الكرة.

فإن قُلْتَ: أين لعنت شجرة الزقوم في القرآن؟ **قُلْتُ:** لعنت حيث لعن طاعموها من الكفرة والظلمة؛ لأنّ الشجرة لا ذنب لها حتى تلعن على الحقيقة. وإنما وصفت بلعن أصحابها على المجاز، وقيل: وصفها الله باللعن والإبعاد من الرحمة وهي في أصل الجحيم في أبعد مكان من الرحمة، وقيل: تقول العرب لكل طعام مكروه: ضار ملعون، وسألت بعضهم فقال: نعم، الطعام الملعون القشب الممحوق، وعن ابن عباس: هي الكشوث التي تتلوى بالشجر يجعل في الشراب، وقيل: هي الشيطان، قيل: أبو جهل. وقرئ: والشجرة الملعونة بالرفع على أنها مبتدأ محذوف الخبر كأنه قيل: والشجرة الملعونة في القرآن كذلك.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾.

﴿طينًا﴾ حال إما من الموصول والعامل فيه أسجد على أأسجد له وهو طين أي: أصله طين أو من الراجع إليه من الصلة على أأسجد لمن كان في وقت خلقه طينًا **﴿أرأيتك﴾** الكاف للخطاب و **﴿هذا﴾** مفعول به والمعنى: أخبرني عن هذا **﴿الذي كرمته﴾** به **﴿عليّ﴾** أي: فضلته لم كرمته عليّ وأنا خير منه؟ فاختصر الكلام بحذف تلك، ثم ابتدأ فقال **﴿لئن أخرتني﴾** واللام موطئة للقسم المحذوف **﴿لأحتنكن ذريته﴾** لأستأصلهم بالإغواء من احتنك الجراد الأرض إذ جرد ما عليها أكلاً، وهو من الحنك، ومنه ما ذكر سيبويه من قولهم: أحنك الشاتين أي: أكلهما.

فإن قُلْتَ: من أين علم أن تلك يتسهل له وهو من الغيب؟ **قُلْتُ:** إما أن سمعه من الملائكة وقد أخبرهم الله به، أو خرجه من قولهم **﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾**[10] أو نظر إليه فتوسم في مخايله أنه خلق شهواني، وقيل: قال ذلك لما عملت وسوسته في آدم، والظاهر أنه قال ذلك قبل أكل آدم من الشجرة.

---

(1) سورة القمر، الآية: 45.

(2) سورة آل عمران، الآية: 12.

(3) قال أحمد: والعمدة في ذلك، أنّ النار لا تؤثر إحراقاً في شيء، ولكن الله تعالى أجرى العادة، أنه خلق الحرق عند ملاقاة جسم النار لبعض الأجسام، فإذا كان ذلك من فعل الله لا من فعل النار، فللّه تعالى أن لا يفعل الحرق في الشجرة التي في أصل الجحيم.

(4) رواه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: ما قيل في درع النبي ﷺ (الحديث رقم: 2915).

(5) سورة الدخان، الآيتان: 43 و44.

(6) قال أحمد: ويبعد ذلك قوله تعالى: ﴿طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾ وقوله: ﴿فإنهم لآكلون منها﴾ والله أعلم.

(7) سورة الصافات، الآية: 91.

(8) بعض آية ورد في أربعة مواضع من القرآن منها: سورة النحل، الآية: 27.

(9) سورة الدخان، الآية: 49.

(10) سورة البقرة، الآية: 30.

قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾.

﴿اذهب﴾ ليس من الذهاب الذي هو نقيض المجيء إنما معناه: لبعض لشانك الذي أخذته خذلانًا وتخلية وعقبة بذكر ما جرّه سوء اختياره في قوله ﴿فمن تبعك منهم فإنّ جهنم جزاؤكم﴾ كما قال موسى عليه السلام للسامري: ﴿فاذهب فإنّ لك في الحياة أن تقول لا مساس﴾[1].

فإن قُلْتَ: أما كان من حق الضمير في الجزاء أن يكون على لفظ الغيبة ليرجع إلى ﴿فمن تبعك﴾؟ **قُلْتُ:** بلى ولكن التقدير: فإنّ جهنم جزاؤهم وجزاؤك، ثم غلب المخاطب على الغائب فقيل جزاؤكم، ويجوز أن يكون للتابعين على طريق الالتفات، وانتصب ﴿جزاء موفورًا﴾ بما في فإنّ جهنم جزاؤكم من معنى تجازون أو بإضمار تجازون، أو على الحال؛ لأنّ الجزاء موصوف بالموفور والموفور الموفر يقال: فر لصاحبك عرضه فرة.

وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾.

استفزّه استخفه والفز الخفيف ﴿واجلب﴾ من الجلبة وهي الصياح. والخيل: الخيالة ومنه قول النبي ﷺ: «يا خيل الله اركبي»[2]. والرجل اسم جمع للراجل ونظيره الركب والصحب. وقرئ: ورجلك على أنّ فعلا بمعنى: فاعل نحو تعب وتاعب، معناه: وجمعك الرجل وتضم جيمه أيضًا فيكون مثل حدث وحدث، وندس وندس، وأخوات لهما يقال: رجل رجل، وقرئ: ورجالك ورجالك.

فإن قُلْتَ: ما معنى استفزاز إبليس بصوته وإجلابه بخيله ورجله؟ **قُلْتُ:** هو كلام ورد مورد التمثيل مثلت حاله في تسلطه على من يغويه بمغوار أوقع على قوم فصوّت بهم صوتًا يستفزهم من أماكنهم ويقلقلهم عن مراكزهم، واجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم، وقيل: بصوته بدعائه إلى الشر، وخيله ورجله كلّ راكب وماش من أهل العيث، وقيل: يجوز أن يكون لإبليس خيل ورجال.

وأمّا المشاركة في الأموال والأولاد فكل معصية يحملهم عليها في بابهما كالربا والمكاسب المحرّمة، والبحيرة والسائبة، والإنفاق في الفسوق والإسراف، ومنع الزكاة، والتوصل إلى الأولاد بالسبب الحرام، ودعوى ولد بغير سبب، والتسمية بعبد العزى وعبد الحرث، والتهويد والتنصير، والحمل على الحرف الذميمة والأعمال المحظورة وغير ذلك ﴿وعدهم﴾[3] المواعيد الكاذبة من شفاعة الآلهة، والكرامة على الله بالأنساب الشريفة، وتسويف التوبة، ومغفرة الذنوب بدونها، والاتكال على الرحمة وشفاعة الرسول في الكبائر، والخروج من النار بعد أن يصيروا حممًا، وإيثار العاجل على الآجل ﴿إنّ عبادي﴾ يريد الصالحين ﴿ليس لك عليهم سلطان﴾ أي: لا تقدر أن تغويهم ﴿وكفى بربك وكيلا﴾ لهم يتوكلون به في الاستعاذة منك ونحوه قوله: ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾[4].

فإن قُلْتَ: كيف جاز أن يأمر الله إبليس بأن يتسلط على عباده مغويًا مضلاً داعيًا إلى الضر صادًا عن الخير؟ **قُلْتُ:** هو من الأوامر الواردة على سبيل الخذلان والتخلية كما قال للعصاة ﴿اعملوا ما شئتم﴾[5].

رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾.

﴿يزجي﴾ يجري ويسير. والضرّ خوف الغرق ﴿ضلّ من تدعون إلا إياه﴾ ذهب عن أوهامكم وخواطركم كلّ من تدعونه في حوائجكم إلاّ إياه وحده، فإنكم لا تذكرون سواه، ولا تدعونه في تلك الوقت، ولا تعتقدون برحمته رجاءكم، ولا تخطرون ببالكم أنّ غيره يقدر على إغاثتكم، أو لم يهتد لإنقاذكم أحد غيره من سائر المدعوّين، ويجوز أن يراد: ضلّ من تدعون من الآلهة عن إغاثتكم، ولكنّ الله وحده هو الذي ترجونه، وحده على الاستثناء المنقطع.

أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾.

﴿أفأمنتم﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره: أنجوتم فأمنتم فحملكم ذلك على الإعراض.

فإن قُلْتَ: بم انتصب ﴿جانب البر﴾؟ **قُلْتُ:** بيخسف مفعولاً به كالأرض في قوله: ﴿فخسفنا به وبداره

---

(1) سورة طه، الآية: 97.

(2) رواه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في النداء عند النفير يا خيل الله اركبي (الحديث رقم: 2560).

(3) قال أحمد: وهذا من تجزى المصنف على السنة ومتبعيها، فإنه جعل المغفرة المقرونة بالمشيئة، وإن لم تكن توبة للمؤمنين من مواعيد الشيطان، مع العلم بأنها ثابتة بقواطع القرآن وعداً من = الرحمن، وكذلك الشفاعة المتفق عليها بين أهل السنة والجماعة، التي وعد بها الصادق المصدوق، وميزه الله تعالى بها على كل مخلوق، من مواعيد الشيطان الباطلة، وأمانيه الماحلة، اللهم ارزقنا الشفاعة، واحشرنا في زمرة السنة والجماعة.

(4) سورة الحجر، الآية: 40.

(5) سورة فصلت، الآية: 40.

الأرض﴾[1] وبكم حال والمعنى: أن يخسف جانب البر أي: يقلبه وأنتم عليه.

فإن قُلْتَ: فما معنى ذكر الجانب؟ **قُلْتُ:** معناه: أن الجوانب والجهات كلها في قدرته سواء، وله في كل جانب برًا كان أو بحرًا سبب مرصد من أسباب الهلكة، ليس جانب البحر وحده مختصًا بذلك، بل إن كان الغرق في جانب البحر ففي جانب البر ما هو مثله وهو: الخسف، لأنه تغييب تحت التراب كما أنّ الغرق وتغييب تحت الماء، فالبرّ والبحر عنده سيان، يقدر في البر على نحو ما يقدر عليه في البحر، فعلى العاقل أن يستوي خوفه من الله في جميع الجوانب وحيث كان ﴿**أو يرسل عليكم حاصبًا**﴾ وهي الريح التي تحصب أي ترمي بالحصباء يعني: أو إن لم يصبكم بالهلاك من تحتكم بالخسف أصابكم به من فوقكم بريح يرسلها عليكم فيها الحصباء يرجمكم بها فيكون أشدّ عليكم من الغرق في البحر ﴿**وكيلاً**﴾ من يتوكل يصرف ذلك عنكم ﴿**أمن امنتم**﴾ أن يقوّي دواعيكم ويوفر حوائجكم إلى أن ترجعوا فتركبوا البحر الذي نجاكم منه فأعرضتم فينتقم منكم بأن يرسل ﴿**عليكم قاصفًا**﴾ وهي: الريح التي لها قصيف وهو: الصوت الشديد كأنها تتقصف أي: تتكسر، وقيل: التي لا تمر بشيء إلا قصفته ﴿**فيغرقكم**﴾ وقرئ: بالتاء أي: الريح. وبالنون، وكذلك نخسف، ونرسل، ونعيدكم قرئت بالياء والنون. التبيع المطالب من قوله: ﴿فاتباع بالمعروف﴾[2] أي: مطالبة، قال الشماخ:

كما لاذ الغريم من التبيع

يقال: فلان على فلان تبيع بحقه، أي: مصيطر عليه مطالب له بحقه، والمعنى: إنا نفعل ما نفعل بهم ثم لا تجد أحد يطالبنا بما فعلنا انتصارًا منا ودركًا للنار من جهتنا، وهذا نحو قوله: ﴿ولا يخاف عقباها﴾[3] ﴿**بما كفرتم**﴾ بكفرانكم النعمة يريد: إعراضهم حين نجاهم.

۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾.

قيل في تكرمة ابن آدم: كرّمه الله بالعقل والنطق والتمييز والخط والصورة الحسنة والقامة المعتدلة وتدبير أمر المعاش والمعاد، وقيل بتسليطهم على ما في الأرض وتسخيره لهم، وقيل: كل شيء يأكل بفيه إلا ابن آدم، وعن الرشيد أنه أحضر طعامًا فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف فقال له: جاء في تفسير جدك ابن عباس قوله تعالى: ﴿**ولقد كرمنا بني آدم**﴾ جعلنا لهم أصابع يأكلون بها فأحضرت الملاعق، فردّها وأكل بأصابعه ﴿**على كثير ممن خلقنا**﴾ هو ما سوى الملائكة[4]، وحسب بني آدم تفضيلاً أن ترفع عليهم الملائكة وهم هم ومنزلتهم عند الله منزلتهم، والعجب من المجبرة كيف عكسوا في كل شيء وكابروا حتى جسرتهم عادة المكابرة على العظيمة التي هي تفضيل الإنسان على الملك، وذلك بعدما سمعوا تفخيم الله أمرهم وتكثيره مع التعظيم ذكرهم، وعلموا أين أسكنهم وأنى قرّبهم وكيف نزلهم من أنبيائه منزلة أنبيائه من أممهم، ثم جرّهم فرط التعصب عليهم إلى أن لفقوا أقوالاً وأخبارًا منها قالت الملائكة: ربنا إنك أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون منها ويتمتعون، ولم تعطنا ذلك؟ فأعطناه في الآخرة فقال: وعزتي وجلالي لا أجعل ذرّية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان[5]، ورووا عن أبي هريرة أنه قال: لمؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده[6]، ومن ارتكابهم أنهم فسروا كثيرًا بمعنى جميع في هذه الآية، وخذلوا حتى سلبوا الذوق فلم يحسوا ببشاعة قولهم: ﴿**وفضلناهم على جميع ممن خلقنا**﴾ على أن معنى قولهم على جميع ممن خلقنا أشجى لحلوقهم وأقذى لعيونهم ولكنهم لا يشعرون، فانظر إلى تمحلهم وتشبثهم بالتأويلات البعيدة في عداوة الملأ الأعلى، كأن جبريل عليه السلام غاظهم حين أهلك مدائن قوم لوط، فتلك السخيمة لا تنحل عن قلوبهم.

يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾.

قرئ: يدعو بالياء والنون ويدعى كل أناس على البناء للمفعول، وقرأ الحسن: يدعو كل أناس على قلب الألف واوًا في لغة من يقول افعوا. والظرف نصب بإضمار اذكر،

---

(1) سورة القصص، الآية: 81.

(2) سورة البقرة، الآية: 178.

(3) سورة الشمس، الآية: 15.

(4) قال أحمد: وقد بلغ إلى حدّ من السفه، يوجب الحدّ، واستالمساجلنه، إلا من حيث العلم، لا من حيث السفه، والقدر الذي تختص به هذه الآية، أن حمل كثير على الجميع غير مستبعد ولا مستنكر، ألا ترى أنه ورد حمل القليل على العدم، والزمخشري يختار ذلك في قوله تعالى: ﴿فقليلاً ما يؤمنون﴾ وأشباهه كثير، وقد لمح الشاعر بذلك في قوله:

قليل بها الأصوات إلا بغامها

أي: لا أصوات بها، ولنا أن نبقيه على ما هو عليه، ونقول: إنّ المخلوق قسمان بنو آدم أحدهما، وغيرهم من جميع المخلوقين = القسم الآخر، ولا شك أن غيرهم أكثر منهم، وإن لم يكونوا أكثر منهم كثيراً، فمعنى قوله: ﴿وفضلناهم على كثير ممن خلقنا﴾ أي: على غيرهم من جميع المخلوقين، وتلك الأغيار كثير بلا مراء، وذلك مرادف لقولك: وفضلناهم على جميع من عداهم ممن خلقنا، فظاهر الآية إذاً مع الأشعرية الذين سماهم مجبرة، وتمشدق في سبهم، وشقشق العبارات في ثلبهم، وما يلفظ من قول، إلا لديه رقيب عتيد، والله وليّ التوفيق والتسديد.

(5) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب في الإيمان بالملائكة، فصل: في معرفة الملائكة (الحديث رقم: 152) وابن ماجه في كتاب: الفتن، باب: المسلمون في ذمة الله تعالى (الحديث رقم: 3946).

(6) رواه البيهقي في شعب الإيمان (الحديث رقم: 153).

ويجوز أن يقال: إنها علامة الجمع كما في ﴿وأسروا النجوى الذين ظلموا﴾[1] والرفع مقدر كما في ﴿يدعى﴾[2] ولم يؤت بالنون قلة مبالاة بها؛ لأنها غير ضمير ليست إلا علامة. ﴿بإمامهم﴾[3] بمن ائتموا به من نبيّ أو مقدم في الدين أو كتاب أو دين، فيقال: يا أتباع فلان، يا أهل دين كذا وكتاب كذا، وقيل: بكتاب أعمالهم، فيقال: يا أصحاب كتاب الخير، ويا أصحاب كتاب الشر، وفي قراءة الحسن: بكتابهم. ومن بدع التفاسير أن الإمام جمع أم، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم، وأن الحكمة في الدعاء بالأمهات دون الآباء رعاية حق عيسى عليه السلام، وإظهار شرف الحسن والحسين، وأن لا يفتضح أولاد الزنا، وليت شعري أيهما أبدع أصحة لفظه أم بهاء حكمته ﴿فمن أوتي﴾ من هؤلاء المدعوّين ﴿كتابه بيمينه فأولئك يقرؤن كتابهم﴾ قيل: أولئك؛ لأن من أوتي في معنى الجمع.

فإن قُلْتَ: لم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم كان أصحاب الشمال لا يقرؤن كتابهم؟ قُلْتُ: بلى ولكن إذا اطلعوا على ما في كتابهم أخذهم ما يأخذ المطالب بالنداء على جناياته والاعتراف بمساويه أمام التنكيل به والانتقام منه من الحياء والخجل والانخزال وحبسة اللسان والتتعتع والعجز عن إقامة حروف الكلام والذهاب عن تسوية القول فكأن قراءتهم كلا قراءة، وأما أصحاب اليمين فأمرهم على عكس ذلك لا جرم أنهم يقرؤن كتابهم أحسن قراءة وأبينها ولا يقنعون بقراءتهم وحدهم حتى يقول القارئ لأهل المحشر: ﴿هاؤم اقرؤا كتابيه﴾[4] ﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾ ولا ينقصون من ثوابهم أدنى شيء كقوله: ﴿ولا يظلمون شيئًا﴾[5] ﴿فلا يخاف ظلمًا ولا هضمًا﴾[6] معناه: ومن كان في الدنيا أعمى فهو في الآخرة أعمى كذلك ﴿وأضل سبيلاً﴾ من الأعمى، والأعمى مستعار ممن لا يدرك المبصرات لفساد حاسته لمن لا يهتدي إلى طريق النجاة، أما في الدنيا فلفقد النظر، وأما في الآخرة فلأنه لا ينفعه الاهتداء إليه، وقد جوزوا[7] أن يكون الثاني بمعنى: التفضيل، ومن ثم قرأ أبو عمرو الأوّل[8]: ممالاً، والثاني: مفخمًا؛ لأن أفعل التفضيل تمامه بمن، فكانت ألفه في حكم الواقعة في وسط الكلام كقولك: أعمالكم، وأمّا الأوّل فلم يتعلق به شيء فكانت ألفه واقعة في الطرف معرضة للإمالة.

وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾.

روي: أنّ ثقيفًا قالت للنبي ﷺ: لا ندخل في أمرك حتى تعطينا خصالاً نفتخر بها على العرب، لا نعشر، ولا نحشر، ولا نجبي في صلاتنا، وكل ربًا لنا فهو لنا، وكل ربًا علينا فهو موضوع عنا، وأن تمتعنا باللات سنة، ولا نكسرها بأيدينا عند رأس الحول، وأن تمنع من قصد وادينا وج فعضد شجره، فإذا سألتك العرب لم فعلت ذلك فقل: إنّ الله أمرني به، وجاؤا بكتابهم، فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله لثقيف: لا يعشرون، ولا يحشرون فقالوا: ولا يجبون، فسكت رسول الله ﷺ، ثم قالوا للكاتب: اكتب ولا يجبون، والكاتب ينظر إلى رسول الله، فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فسلّ سيفه وقال: أسعرتم قلب نبينا يا معشر ثقيف أسعر الله قلوبكم نارًا، فقالوا: لسنا نكلم إياك إنما نكلم محمدًا[9]، فنزلت. وروي أنّ قريشًا قالوا له: اجعل آية رحمة آية عذاب، وآية عذاب آية رحمة، حتى نؤمن بك، فنزلت ﴿وإن كادوا ليفتنونك﴾ إن مخففة من الثقيلة واللام هي: الفارقة بينها وبين النافية، والمعنى: أنّ الشأن قاربوا أن يفتنوك، أي: يخدعوك فاتنين ﴿عن الذي أوحينا إليك﴾ من أوامرنا ونواهينا ووعدنا ووعيدنا ﴿لتفتري علينا﴾ لتقول علينا ما لم نقل يعني: ما أداروه عليه من تبديل الوعد وعيدًا والوعيد وعدًا، وما اقترحته ثقيف من أن يضيف إلى الله ما لم ينزله عليه ﴿وإذا لاتخذوك﴾ أي: ولو اتبعت مرادهم لاتخذوك ﴿خليلاً﴾ ولكنت لهم وليًا وخرجت من ولايتي.

وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾.

﴿ولولا أن ثبتناك﴾ ولولا تثبيتنا لك وعصمتنا ﴿لقد كدت تركن إليهم﴾ لقاربت أن تميل إلى خدعهم ومكرهم، وهذا تهييج من الله له، وفضل تثبيت وفي ذلك لطف للمؤمنين ﴿إذًا﴾ لو قاربت تركن إليهم أدنى ركنة ﴿لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات﴾ أي: لأذقناك

---

(1) سورة الأنبياء، الآية: 3.

(2) سورة الصف، الآية: 7.

(3) قال أحمد: ولقد استبدع بدعاً لفظاً ومعنى، فإن جمع الأمّ المعروف أمّهات، أما رعاية عيسى عليه السلام بذكر أمّهات الخلائق، ليذكر بأمّه، فيستدعي أن خلق عيسى من غير أب، غميزة في منصبه، وذلك عكس الحقيقة، فإنّ خلقه من غير أب، كان له آية له، وشرفاً في حقه، والله أعلم.

(4) سورة الحاقة، الآية: 19.

(5) سورة مريم، الآية: 60.

(6) سورة طه، الآية: 112.

(7) قال أحمد: أي: لأنه من عمى القلب، لاعمى البصر، فجاز أن ينبني منه أفعل.

(8) قال أحمد: ويحتمل أن تكون هذه الآية قسمية الأولى، أي: فمن أوتي كتابه بيمينه، فهو الذي يبصره ويقرؤه، ومن كان في الدنيا أعمى غير مبصر في نفسه، ولا ناظر في معاده، فهو في الآخرة كذلك، غير مبصر في كتابه بل أعمى عنه، أو أشد عمى مما كان في الدنيا، على اختلاف التأويلين، والله أعلم.

(9) لم يخرجه الزيلعي.

عذاب الآخرة، وعذاب القبر مضاعفين[1].

فإن قُلْتَ: كيف حقيقة هذا الكلام **قُلْتُ**: أصله لأذقناك عذاب الحياة وعذاب الممات؛ لأنّ العذاب عذابان عذاب في الممات وهو: عذاب القبر، وعذاب في حياة الآخرة وهو: عذاب النار، والضعف يوصف به نحو قوله: ﴿فآتهم عذابًا ضعفًا من النار﴾[2] بمعنى: مضاعفًا، فكان أصل الكلام لأذقناك عذابًا ضعفًا في الحياة، وعذابًا ضعفًا في الممات، ثم حذف الموصوف، وأقيمت الصفة مقامه، وهو: الضعف، ثم أضيفت الصفة إضافة الموصوف فقيل: ضعف الحياة وضعف الممات، كما لو قيل: لأذقناك أليم الحياة وأليم الممات، ويجوز أن يراد بضعف الحياة: عذاب الحياة الدنيا، وبضعف الممات: ما يعقب الموت من عذاب القبر وعذاب النار، والمعنى: لضاعفنا لك العذاب المعجل للعصاة في الحياة الدنيا، وما نؤخره لما بعد الموت. وفي نكر الكيدودة وتقليلها مع اتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف في الدارين دليل بين على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله وارتفاع منزلته، ومن ثم استعظم مشايخ العدل والتوحيد رضوان الله عليهم نسبة المجبرة القبائح إلى الله تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا، وفيه دليل على أن أدنى مداهنة للغواة مضادة لله وخروج عن ولايته وسبب موجب لغضبه ونكاله، فعلى المؤمن إذا تلا هذه الآية أن يجثو عندها ويتدبرها فهي جديرة بالتدبر، وبأن يستشعر الناظر فيها الخشية وازدياد التصلب في دين الله، وعن النبي ﷺ أنها لما نزلت كان يقول: «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين»[3].

وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾.

﴿وإن كادوا﴾ وإن كاد أهل مكة ﴿ليستفزونك﴾ ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم ﴿من الأرض﴾ من أرض مكة ﴿وإذًا لا يلبثون﴾ لا يبقون بعد إخراجك ﴿إلا﴾ زمانًا ﴿قليلاً﴾ فإن الله مهلكهم، وكان كما قال: فقد أهلكوا ببدر بعد إخراجه بقليل، وقيل معناه: ولو أخرجوك لاستؤصلوا عن بكرة أبيهم، ولم يخرجوه بل هاجر بأمر ربه، وقيل: من أرض العرب، وقيل: من أرض المدينة. وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر حسدته اليهود وكرهوا قربه منهم فاجتمعوا إليه وقالوا: يا أبا القاسم، إن الأنبياء إنما بعثوا بالشام وهي بلاد مقدّسة وكانت مهاجر إبراهيم، فلو خرجت إلى الشام لأمنا بك واتبعناك، وقد علمنا أنه لا يمنعك من الخروج إلا خوف الروم، فإن كنت رسول الله فالله مانعك منهم، فعسكر رسول الله ﷺ على أميال من المدينة، وقيل: بذي الحليفة حتى يجتمع إليه أصحابه ويراه الناس عازمًا على الخروج إلى الشام لحرصه على دخول الناس في دين الله[4]، فنزلت فرجع. وقرئ*: لا يلبثون، وفي قراءة أبي: لا يلبثوا على إعمال إذا.

فإن قُلْتَ: ما وجه القراءتين؟ **قُلْتُ**: أما الشائعة فقد عطف فيها الفعل على الفعل وهو مرفوع لوقوعه خبر كاد، والفعل في خبر كاد واقع موقع الاسم، وأما قراءة أبي: ففيها الجملة برأسها التي هي ﴿إذًا لا يلبثوا﴾ عطف على جملة قوله ﴿وإن كادوا ليستفزونك﴾ وقرئ* خلافك. قال:

عفت الديار خلافهم فكأنما ... بسط الشواطب بينهنّ حصيرا

أي: بعدهم، ﴿سنة من قد أرسلنا﴾ يعني: أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم فسنة الله أن يهلكهم، ونصبت نصب المصدر المؤكد أي: سن الله ذلك سنة.

أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾.

دلكت الشمس غربت، وقيل: زالت، وروي عن النبي ﷺ: «أتاني جبريل عليه السلام لدلوك الشمس حين زالت الشمس فصلى بي الظهر»[5]، واشتقاقه من الدلك؛ لأن الإنسان يدلك عينه عند النظر إليها، فإن كان الدلوك الزوال فالآية جامعة للصلوات الخمس، وإن كان الغروب فقد خرجت منها الظهر والعصر. والغسق: الظلمة وهو: وقت صلاة العشاء ﴿وقرآن الفجر﴾ صلاة الفجر سميت قرآنًا وهو القراءة: لأنها ركن، كما سميت ركوعًا وسجودًا وقنوتًا وهي: حجة على ابن علية والأصم في زعمهما أن القراءة

---

(1) قال أحمد: أمّا تقليل الكيدودة، فالذي ينبغي أن يحمل عليه، كونه الواقع في علم الله تعالى؛ لأنّ الله عزّ وجل يعلم ما لم يكن، لو كان، كيف كان يكون، فعلم تعالى أنّ الركون الذي كاد يحصل منه عليه السلام، وإن كان ما حصل أمر قليل، وخطب يسير، فذلك إخبار من الله تعالى عن الواقع في علمه تقديراً، فلا يليق أن يحمل على المبالغة والتشبيه، فإنّ ذلك لا يكون في الإخبار، ألا ترى أنه لو كان الواقع كبدودة ركون كثير، لكان تقليله خلفاً في الخبر، ولا ينكر أن الذنب يعظم بحسب فاعله، على ما ورد حسنات الأبرار سيئات المقربين، وأما نقل الزمخشري عن مشايخه استعظام نسبة الفواحش والقبائح إلى الله عز وجل، فلقد استعظموا عظيماً حق على كل مسلم أن يستفظعه، ولكنهم جهلوا باعتقاد القبح وصفاً ذاتياً للقبيح، فلزمهم على ذلك كل فعل استقبح من العبد، استقبح = من الله تعالى، وهم غالطون في ذلك، فمعنى كون الفعل قبيحاً، أن الله تعالى نهى عنه عبده، وإن كان لله تعالى أن يفعله وهو حسن بالنسبة إليه، لا يسئل عما يفعل وهم يسألون، ألا ترى أن الملك يصح منه أن يستقبح من عبده أن يجلس على كرسي الملك، ونهاه عن ذلك، ولا يستقبح ذلك من نفسه، بل هو منه حسن جميل، ولقد كان لمشايخه شغل باستعظام ما لزمهم من الإشراك عن استعظام غيره، مما هو توحيد محض وإيمان صرف، ولكنهم زين لهم سوء اعتقادهم، فرآه حسناً، والله الموفق.

(2) سورة الأعراف، الآية: 38.

(3) قال الزيلعي نكره الثعلبي 2/279.

(4) لم يخرجه الزيلعي.

(5) رواه البيهقي في كتاب المعرفة الزيلعي 2/280.

ليست بركن ﴿مشهودًا﴾ يشهده ملائكة الليل والنهار ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء فهو في آخر ديوان الليل وأوّل ديوان النهار، أو يشهده الكثير من المصلين في العادة، أو من حقه أن يكون مشهودًا بالجماعة الكثيرة، ويجوز أن يكون ﴿وقرآن الفجر﴾ حثًا على طول القراءة في صلاة الفجر لكونها مكثورًا عليها ليسمع الناس القرآن فيكثر الثواب، ولذلك كانت الفجر أطول الصلوات قراءة.

وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾.

﴿ومن الليل﴾ وعليك بعض الليل ﴿فتهجد به﴾ والتهجد ترك الهجود للصلاة ونحوه: التأثم والتحرج، ويقال أيضًا في النوم بتهجد ﴿نافلة لك﴾ عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس، وضع نافلة موضع تهجدًا؛ لأن التهجد عبادة زائدة فكان التهجد والنافلة يجمعهما معنى واحد، والمعنى: أن التهجد زيد لك على الصلوات المفروضة فريضة عليك خاصة دون غيرك؛ لأنه تطوع لهم ﴿مقامًا محمودًا﴾ نصب على الظرف أي: عسى أن يبعثك يوم القيامة فيقيمك مقامًا محمودًا، أو ضمن يبعثك معنى يقيمك، ويجوز أن يكون حالاً بمعنى: أن يبعثك ذا مقام محمود، ومعنى المقام المحمود: المقام الذي يحمده القائم فيه وكل من رآه وعرفه وهو مطلق في كل ما يجب الحمد من أنواع الكرامات، وقيل: المراد الشفاعة وهي نوع واحد مما يتناوله. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: مقام يحمدك فيه الأوّلون والآخرون وتشرف فيه على جميع الخلائق تسأل فتعطى وتشفع فتشفع ليس أحد إلا تحت لوائك، وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ هو: «المقام الذي أشفع فيه لأمّتي»[1] وعن حذيفة: يجمع الناس في صعيد واحد، فلا تتكلم نفس، فأوّل مدعو محمد ﷺ فيقول: لبيك وسعديك والشرّ ليس إليك، والمهدي من هديت، وعبدك بين يديك وبك، وإليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت[2]. قال: فهذا قوله: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا﴾.

وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾.

قرئ: مدخل ومخرج بالضم والفتح بمعنى المصدر، ومعنى الفتح أدخلني فأدخل مدخل صدق أي: أدخلني القبر مدخل صدق إدخالاً مرضيًا على طهارة وطيب من السيئات، وأخرجني منه عند البعث إخراجًا مرضيًا ملقى بالكرامة آمنًا من السخط، يدل عليه ذكره على أثر ذكر البعث، وقيل: نزلت حين أمر بالهجرة، يريد إدخال المدينة والإخراج من مكة، وقيل: إدخاله مكة ظاهرًا عليها بالفتح، وإخراجه منها آمنًا من المشركين، وقيل: إدخاله الغار وإخراجه منه سالمًا، وقيل: إدخاله فيما حمله من عظيم الأمر وهو النبوّة، وإخراجه منه مؤديًا لما كلفه من غير تفريط، وقيل: الطاعة، وقيل: هو عام في كل ما يدخل فيه ويلابسه من أمر ومكان ﴿سلطانًا﴾ حجة تنصرني على من خالفني، أو ملكًا وعزًا قويًا ناصرًا للإسلام على الكفر مظهرًا له عليه. فأجيبت دعوته بقوله: ﴿والله يعصمك من الناس﴾[3] ﴿فإنّ حزب الله هم الغالبون﴾[4] ﴿ليظهره على الدين كله﴾[5] ﴿ليستخلفنهم في الأرض﴾[6] ووعده لينزعنّ ملك فارس والروم فيجعله له، وعنه ﷺ: «أنه استعمل عتاب بن أسيد على أهل مكة وقال: انطلق فقد استعملتك على أهل الله[7] فكان شديدًا على المريب لينًا على المؤمن، وقال: لا والله لا أعلم متخلفًا يتخلف عن الصلاة في جماعة إلا ضربت عنقه، فإنه لا يتخلف عن الصلاة إلا منافق، فقال أهل مكة: يا رسول الله لقد استعملت على أهل الله عتاب بن أسيد أعرابيًا جافيًا، فقال ﷺ: إني رأيت فيما يرى النائم كأن عتاب بن أسيد أتى باب الجنة فأخذ بحلقة الباب فقلقلها قلقالاً شديدًا حتى فتح له فدخلها، فأعز الله به الإسلام لنصرته المسلمين على من يريد ظلمهم، فذلك السلطان النصير.

وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾.

كان حول البيت ثلاثمائة وستون صنمًا، صنم كل قوم بحيالهم. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كانت لقبائل العرب يحجون إليها وينحرون لها، فشكا البيت إلى الله عز وجل فقال: أي رب حتى متى تعبد هذه الأصنام حولي دونك، فأوحى الله إلى البيت إني سأحدث لك نوبة جديدة، فأملاك خدودًا سجدًا يدفون إليك دفيف النسور يحنون إليك حنين الطير إلى بيضها لهم عجج حولك بالتلبية، ولما نزلت هذه الآية يوم الفتح قال جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ: خذ مخصرتك ثم ألقها، فجعل يأتي صنمًا صنمًا وهو ينكث بالمخصرة في عينه ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل» فينكب الصنم لوجهه حتى ألقاها جميعًا، وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة وكان من قوارير صفر فقال: «يا علي ارم به» فحمله رسول الله ﷺ حتى صعد فرمى به فكسره، فجعل أهل مكة يتعجبون ويقولون: ما رأينا رجلاً أسحر من محمد ﷺ[8]، وشكاية البيت والوحي إليه تمثيل

(1) رواه أحمد في مسنده 2/478، والترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل (الحديث رقم: 3137).
(2) رواه الحاكم في المستدرك 2/363 وأبو يعلى في المسند (الحديث رقم: 2899).
(3) سورة المائدة، الآية: 67.
(4) سورة المائدة، الآية: 56.
(5) سورة التوبة، الآية: 33.
(6) سورة النور، الآية: 55.
(7) رواه الثعلبي وابن مردويه (الزيلعي 2/286).
(8) قال الزيلعي: غريب ورواه النسائي في السنن الكبرى مختصرًا 2/287.

وتخييل ﴿وزهق الباطل﴾ ذهب وهلك من قولهم: زهقت نفسه إذا خرجت. والحق الإسلام والباطل الشرك ﴿كان زهوقًا﴾ كان مضمحلاً غير ثابت في كل وقت.

وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾.

﴿وننزل﴾ وقرئ: بالتخفيف والتشديد ﴿من القرآن﴾ من للتبيين كقوله: من الأوثان، أو للتبعيض أي: كل شيء نزل من القرآن فهو شفاء للمؤمنين، يزدادون به إيمانًا ويستصلحون به دينهم، فموقعه منهم موقع الشفاء من المرضى، وعن النبي ﷺ: «من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله[1]. ولا يزداد به الكافرون ﴿إلا خسارًا﴾ أي: نقصانًا لتكذيبهم به وكفرهم كقوله تعالى: ﴿فزادتهم رجسًا إلى رجسهم﴾[2].

وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾.

﴿إذا أنعمنا على الإنسان﴾ الصحة والسعة ﴿أعرض﴾ عن ذكر الله كأنه مستغني عنه مستبد بنفسه ﴿ونأى بجانبه﴾ تأكيد للإعراض؛ لأنّ الإعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهه، والنأي: بالجانب أن يلوي عنه عطفه ويوليه ظهره وأراد الاستكبار؛ لأنّ ذلك من عادة المستكبرين ﴿وإذا مسه الشر﴾ من فقر أو مرض أو نازلة من النوازل ﴿كان يؤسًا﴾ شديد اليأس من روح الله ﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾[3] وقرئ: وناء بجانبه بتقديم اللام على العين كقولهم: راء في رأي، ويجوز أن يكون من ناء بمعنى: نهض.

قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾.

﴿قل كل﴾ احد ﴿يعمل على شاكلته﴾ أي: على مذهبه وطريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلالة من قولهم: طريق ذو شواكل وهي: الطرق التي تتشعب منه والدليل عليه قوله: ﴿فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾ أي: أسد مذهبًا وطريقة.

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾.

الأكثر على أنه الروح الذي في الحيوان سألوه عن حقيقته فأخبر أنه من أمر الله أي: مما استأثر بعلمه، وعن ابن أبي بريدة: لقد مضى النبي ﷺ وما يعلم الروح[4]، وقيل: هو خلق عظيم روحاني أعظم من الملك، وقيل: جبريل عليه السلام، وقيل: القرآن و ﴿من أمر ربي﴾ أي: من وحيه وكلامه ليس من كلام البشر، بعثت اليهود إلى قريش أن سلوه عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح، فإن أجاب عنها أو سكت فليس بنبي، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي، فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح، وهو مبهم في التوراة فندموا على سؤالهم[5] ﴿وما أوتيتم﴾ الخطاب عام، وروي: أنّ رسول الله ﷺ لما قال لهم ذلك قالوا: نحن مختصون بهذا الخطاب أم أنت معنا فيه؟ فقال: بل نحن وأنتم لم نؤت من العلم إلا قليلاً، فقالوا: ما أعجب شأنك! ساعة تقول: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا﴾[6] وساعة تقول هذا[7]، فنزلت ﴿ولو أنّ ما في الأرض من شجرة أقلام﴾[8] وليس ما قالوه بلازم؛ لأنّ القلة والكثرة تدوران مع الإضافة فيوصف الشيء بالقلة مضافًا إلى ما فوقه بالكثرة مضافًا إلى ما تحته، فالحكمة التي أوتيها العبد خير كثير في نفسها إلا أنها إذا أضيفت إلى علم الله فهي قليلة، وقيل: هو خطاب لليهود خاصة؛ لأنهم قالوا للنبي ﷺ: قد أوتينا التوراة وفيها الحكمة وقد تلوت ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا﴾[9] فقيل لهم: إن علم التوراة قليل في جنب علم الله.

وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾.

﴿لنذهبن﴾ جواب قسم محذوف مع نيابته عن جزاء الشرط. واللام الداخلة على إن موطئة للقسم، والمعنى: إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه عن الصدور والمصاحف فلم نترك له أثر، أو بقيت كما كنت لا تدري ما الكتاب ﴿ثم لا تجد لك﴾ بعد الذهاب ﴿به﴾ من يتوكل علينا باسترداده وإعادته محفوظًا مستورًا ﴿إلا رحمة من ربك﴾ إلا أن يرحمك ربك فيرده عليك كأن رحمته تتوكل عليه بالرد، أو يكون على الاستثناء المنقطع بمعنى: ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به، وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظًا بعد المنة العظيمة في تنزيله وتحفيظه، فعلى كل ذي علم أن لا يغفل عن هاتين المنتين والقيام بشكرهما، وهما: منة الله عليه بحفظ العلم ورسوخه في صدره، ومنته عليه في بقاء المحفوظ. وعن ابن مسعود: إن أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما تفقدون الصلاة، وليصلين قوم ولا دين لهم، وإن هذا

---

(1) رواه الثعلبي (الزيلعي 2/288).
(2) سورة التوبة، الآية: 125.
(3) سورة يوسف، الآية: 87.
(4) رواه الواحدي في الوسيط، الزيلعي 2/289.
(5) رواه ابن هشام في السيرة 1/300 ـ 301.
(6) سورة البقرة، الآية: 269.
(7) ذكره الزيلعي 2/290.
(8) سورة لقمان، الآية: 27.
(9) سورة البقرة، الآية: 269.

القرآن تصبحون يومًا وما فيكم منه شيء، فقال رجل: كيف ذلك وقد أثبتناه في قلوبنا، وأثبتناه في مصاحفنا نعلمه أبناءنا، ويعلمه أبناؤنا أبناءهم؟ فقال: يسري عليه ليلاً فيصبح الناس منه فقراء، ترفع المصاحف، وينزع ما في القلوب **﴿لا يأتون﴾** جواب قسم محذوف ولولا اللام الموطئة لجاز أن يكون جوابًا للشرط كقوله: يقول لا غائب مالي ولا حرم. لأنّ الشرط وقع ماضيًا أي: لو تظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في بلاغته وحسن نظمه وتأليفه ـ وفيهم العرب العاربة أرباب البيان ـ لعجزوا عن الإتيان بمثله، والعجب[1] من النوابت ومن زعمهم أن القرآن قديم مع اعترافهم بأنه معجز، وإنما يكون العجز حيث تكون القدرة فيقال: الله قادر على خلق الأجسام، والعباد عاجزون عنه، وأما المحال الذي لا مجال فيه للقدرة ولا مدخل لها فيه كثاني القديم فلا يقال للفاعل: قد عجز عنه ولا هو معجز، ولو قيل ذلك لجاز وصف الله بالعجز؛ لأنه لا يوصف بالقدرة على المحال إلا أن يكابروا فيقولوا: هو قادر على المحال، فإن رأس مالهم المكابرة وقلب الحقائق.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾.

﴿ولقد صرفنا﴾ ردّدنا وكررنا **﴿من كل مثل﴾** من كل معنى هو كالمثل في غرابته وحسنه. والكفور الجحود.

فإن قُلْتَ: كيف جاز **﴿فأبى اكثر الناس إلا كفورًا﴾** ولم يجز ضربت إلا زيدًا؟ **قُلْتُ:** لأن أبي متأوّل بالنفي كأنه قيل: فلم يرضوا إلا كفورًا. لما تبين إعجاز القرآن وانضمت إليه المعجزات الأخر والبينات ولزمتهم الحجة وغلبوا، أخذوا يتعللون باقتراح الآيات فعل المبهوت المحجوج المتعثر في أذيال الحيرة فقالوا: **﴿لن نؤمن لك حتى﴾** وحتى **﴿تفجر﴾** تفتح، وقرئ: تفجر بالتخفيف **﴿من الأرض﴾** يعنون أرض مكة **﴿ينبوعًا﴾** عينًا غزيرة من شأنها أن تنبع بالماء لا تقطع، يفعول من نبع الماء كيعبوب من عب الماء **﴿كما زعمت﴾** يعنون قول الله تعالى: **﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفًا من السماء﴾**[2]. قرئ: كسفًا بسكون السين جمع كسفة كسدرة وسدر وبفتحه **﴿قبيلاً﴾** كفيلاً بما تقول شاهدًا بصحته والمعنى: أو تأتي بالله قبيلاً وبالملائكة قبلاً كقوله:

كنت منه ووالدي بريًا ... فإني وقيار بها لغريب

أو مقابلاً كالعشير بمعنى: المعاشر ونحوه: **﴿لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾**[3] وجماعة حالاً من الملائكة.

أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾.

﴿من زخرف﴾ من ذهب **﴿في السماء﴾** في معارج السماء فحذف المضاف. يقال: رقي في السلم وفي الدرجة **﴿ولن نؤمن لرقيك﴾** ولن نؤمن لأجل رقيك **﴿حتى تنزل علينا كتابًا﴾** من السماء فيه تصديقك، عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال عبد الله بن أبي أمية: لن نؤمن لك حتى تتخذ إلى السماء سلمًا ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها، ثم تأتي معك بصك منشور معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وما كانوا يقصدون بهذه الاقتراحات إلا العناد واللجاج، ولو جاءتهم كل آية لقالوا: هذا سحر كما قال عزّ وجل: **﴿ولو نزلنا عليك كتابًا في قرطاس﴾**[4] **﴿ولو فتحنا عليهم بابًا من السماء فظلوا فيه يعرجون﴾**[5] وحين أنكروا الآية الباقية التي هي القرآن، وسائر الآيات وليست بدون ما اقترحوه بل هي أعظم لمن يكن إلى تبصرتهم سبيل **﴿قل سبحان ربي﴾** وقرئ: قال سبحان ربي أي: قال الرسول: وسبحان ربي! تعجب من اقتراحاتهم عليه **﴿هل كنت إلا﴾** رسولاً كسائر الرسل **﴿بشرًا﴾** مثلهم، وكان الرسل لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم من الآيات، فليس أمر الآيات إليّ إنما هو إلى الله فما بالكم تتخيرنها عليّ.

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾.

أن الأولى نصب مفعول ثان لمنع، والثانية رفع فاعل له و **﴿الهدى﴾** الوحي أي: وما منعهم الإيمان بالقرآن وبنبوّة محمد ﷺ إلا شبهة تلجلجت في صدورهم وهي: إنكارهم أن يرسل الله البشر، والهمزة في **﴿أبعث الله﴾** للإنكار،

---

(1) **قال أحمد:** ومما يدلك على حيد المصنف عن سنن المنصف، أنه تدلس على الضعفة في مثل هذه المسألة، التي طبقت الأرض ظهوراً وشيوعاً، ومع ذلك يرضى لنفسه أن يتجاهل فيها عن معتقد القوم، وذلك أن عقيدة أهل السنة أن مدلول العبارات صفة قديمة، قائمة بذات الباري تعالى، يطلق عليها قرآن، ويطلق أيضاً على أدلتها، وهي هذه الكلمات الفصيحة، والآي الكريمة قرآن، وإن المعجز عندهم الدليل لا المدلول، لكنهم يتحرزون من إطلاق القول بأنه مخلوق، لوجهين، أحدهما: أنه إطلاق موهم، والثاني: أن = السلف الصالح كفوا عنه، فاقتفوا آثارهم، واقتبسوا أنوارهم، وكم من معتقد لا يطلق القول به خشية إيهام غيره مما لا يجوز اعتقاده، فلا ربط بين الاعتقاد والإطلاق، ولا كرامة لمعتقد ذلك، والمتعنت بإلزامه، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

(2) سورة سبأ، الآية: 9.

(3) سورة الفرقان، الآية: 21.

(4) سورة الأنعام، الآية: 7.

(5) سورة الحجر، الآية: 14.

وما أنكروه فخلافه هو المنكر عند الله؛ لأنّ قضية حكمته أن لا يرسل ملك الوحي إلا إلى أمثاله، أو إلى الأنبياء، ثم قرر ذلك بأنه ﴿لو كان في الأرض ملائكة يمشون﴾[1] على أقدامهم كما يمشي الإنس، ولا يطيرون بأجنحتهم إلى السماء فيسمعوا من أهلها ويعلموا ما يجب علمه ﴿مطمئنين﴾ ساكنين في الأرض قادرين ﴿لنزلنا عليهم من السماء ملكًا رسولاً﴾ يعلمهم الخير ويهديهم المراشد، فأما الإنس فما هم بهذه المثابة، إنما يرسل الملك إلى مختار منهم للنبوّة، فيقوم ذلك المختار بدعوتهم وإرشادهم.

فإن قُلْتَ: هل يجوز أن يكون ﴿بشرًا﴾ و ﴿ملكًا﴾ منصوبين على الحال من رسولاً **قُلْتُ:** وجه حسن، والمعنى له أجوب ﴿شهيدًا بيني وبينكم﴾ على أني بلغت ما أرسلت به إليكم وأنكم كذبتم وعاندتم ﴿إنه كان بعباده﴾ المنذرين والمنذرين ﴿خبيرًا﴾ عالمًا بأحوالهم فهو مجازيهم، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ ووعيد للكفرة، وشهيدًا تمييز أو حال.

وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾.

﴿ومن يهد الله﴾ ومن يوفقه ويلطف به ﴿فهو المهتد﴾ لانه لا يلطف إلا بمن عرف أن اللطف ينفع فيه ﴿ومن يضلل﴾ ومن يخذل ﴿فلن تجد لهم أولياء﴾ أنصارًا ﴿على وجوههم﴾ كقوله: ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم﴾[2] وقيل لرسول الله ﷺ: كيف يمشون على وجوههم؟ قال: «إنّ الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم»[3]. ﴿عميًا وبكمًا وصمًا﴾ كما كانوا في الدنيا لا يستبصرون، ولا ينطقون بالحق، ويتصامون عن استماعه، فهم في الآخرة كذلك لا يبصرون ما يقرّ أعينهم، ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم، ولا يتعلقون بما يقبل منهم ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى﴾[4] ويجوز أن يحشروا مؤفي الحواس من الموقف إلى النار بعد الحساب، فقد أخبر عنهم في موضع آخر أنهم يقرؤن ويتكلمون ﴿كلما خبت﴾ كلما أكلت جلودهم ولحومهم وأفنتها فسكن لهبها وبلوا غيرها، فرجعت ملتهبة مستعرة كأنهم لما كذبوا بالإعادة بعد الإفناء جعل الله جزاءهم أن سلط النار على أجزائهم تأكلها وتفنيها ثم يعيدها، لا يزالون على الإفناء والإعادة ليزيد ذلك في تحسرهم على تكذيبهم البعث، ولأنه أدخل في الانتقام من الجاحد، وقد دلّ على ذلك بقوله: ﴿ذلك جزاؤهم﴾ إلى قوله: ﴿أئنا لمبعوثون خلقًا جديدًا﴾.

۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ۖ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ ۖ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾.

فإن قُلْتَ: علام عطف قوله: ﴿وجعل لهم أجلاً﴾ **قُلْتُ:** على قوله: ﴿أولم يروا﴾ لأنّ المعنى: قد علموا بدليل العقل أنّ من قدر على خلق السموات والأرض فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس؛ لأنهم ليسوا بأشدّ خلقًا منهنّ كما قال: ﴿أأنتم أشدّ خلقًا أم السماء﴾[5] ﴿وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه﴾ وهو الموت، أو القيامة، فأبوا مع وضوح الدليل إلا جحودًا.

قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾.

لو حقها أن تدخل على الأفعال دون الأسماء فلا بدّ من فعل بعدها في ﴿لو أنتم تملكون﴾ وتقديره لو تملكون تملكون فاضمر تلك إضمارًا على شريطة التفسير، وأبدل من الضمير المتصل الذي هو الواو ضمير منفصل، وهو أنتم لسقوط ما يتصل به من اللفظ، فأنتم فاعل الفعل المضمر وتملكون تفسيره، وهذا هو الوجه الذي يقتضيه علم الإعراب، فأمّا ما يقتضيه علم البيان فهو: أن أنتم تملكون فيه دلالة على الاختصاص وأنّ الناس هم المختصون بالشح المتبالغ ونحوه قول حاتم:

لو ذات سوار لطمتني

وقول المتلمس:

ولو غير أخوالي أرادوا نقيصتي

وذلك لأنّ الفعل الأوّل لما سقط الأجل المفسر برز الكلام في صورة المبتدأ والخبر. ورحمة الله: رزقه وسائر نعمه على خلقه، ولقد بلغ هذا الوصف بالشح الغاية التي لا يبلغها الوهم، وقيل: هو لأهل مكة الذين اقترحوا ما اقترحوا من الينبوع والأنهار وغيرها، وأنهم لو ملكوا خزائن الأرزاق لبخلوا بها ﴿قتورًا﴾ ضيقًا بخيلاً.

فإن قُلْتَ: هل يقدّر لأمسكتم مفعول **قُلْتُ:** لا؛ لأنّ معناه: لبخلتم من قولك للبخيل ممسك.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ۖ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾.

---

(1) قال أحمد: وقد اشتمل كلامه هذا على جواب حسن عن سؤال مقدّر، وهو قول القائل، إنّ مجرّد وجود الملائكة في الأرض، يناسب إرسال الملك إليهم، فما فائدة هذه الزيادة، فيكون جوابه ما تقدّم، والله الموفق.

(2) سورة القمر، الآية: 48.

(3) رواه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: من سورة بني إسرائيل (الحديث رقم: 3142).

(4) سورة الإسراء، الآية: 72.

(5) سورة النازعات، الآية: 27.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: هي العصا، واليد، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والحجر، والبحر، والطور الذي نتقه على بني إسرائيل، وعن الحسن: الطوفان، والسنون، ونقص الثمرات، مكان الحجر، والبحر، والطور. وعن عمر بن عبد العزيز: أنه سأل محمد بن كعب فنكر: اللسان، والطمس، فقال له عمر: كيف يكون الفقيه إلا هكذا. أخرج يا غلام ذلك الجراب، فأخرجه فنفضه فإذا بيض مكسور بنصفين وجوز مكسور وفوم وحمص وعدس كلها حجارة. وعن صفوان بن عسال أنّ بعض اليهود سأل النبيّ ﷺ عن ذلك فقال: «أوحى الله إلى موسى أن قل لبني إسرائيل: لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تقنفوا محصنة، ولا تفرّوا من الزحف؛ وأنتم يا يهود خاصة لا تعدوا في السبت»[1]. **﴿فاسئل بني إسرائيل﴾** فقلنا له: سل بني إسرائيل أي: سلهم من فرعون؟ وقل له: أرسل معي بني إسرائيل، أو سلهم عن إيمانهم، وعن حال دينهم، أو سلهم أن يعاضدوك وتكون قلوبهم وأيديهم معك، وتدلّ عليه قراءة رسول الله ﷺ: «فسأل بني إسرائيل» على لفظ الماضي بغير همز وهي لغة قريش، وقيل: فسل يا رسول الله المؤمنين من بني إسرائيل، وهم: عبد الله بن سلام وأصحابه، عن الآيات ليزدادوا يقينًا وطمأنينة قلب؛ لأنّ الأدلة إذا تظاهرت كان ذلك أقوى وأثبت كقول إبراهيم: **﴿ولكن ليطمئنّ قلبي﴾**[2].

فإن قُلْتَ: بم تعلق **﴿إذ جاءهم﴾**؟ **قُلْتُ:** أمّا على الوجه الأوّل: فبالقول المحذوف أي: فقلنا له سلهم حين جاءهم، أو بسأل في القراءة الثانية، وأمّا على الأخير: فبآتينا، أو بإضمار اذكر، أو يخبروك ومعنى: إذ جاءهم إذ جاء آباءهم **﴿مسحورًا﴾** سحرت فخولط عقلك.

﴿لقد علمت﴾ يا فرعون **﴿ما أنزل هؤلاء﴾** الآيات إلا الله عز وجل **﴿بصائر﴾** بينات مكشوفات، ولكنك معاند مكابر ونحوه: **﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوًا﴾**[3] وقرئ: علمت بالضم على معنى: إني لست بمسحور كما وصفتني بل أنا عالم بصحة الأمر. وأنّ هذه الآيات منزلها رب السموات والأرض. ثم قارع ظنه بظنه كأنه قال إن ظننتني مسحورًا فأنا أظنك **﴿مثبورًا﴾** هالكًا، وظني أصح من ظنك؛ لأنّ له أمارة ظاهرة وهي إنكارك ما عرفت صحته ومكابرتك لآيات الله بعد وضوحها، وأمّا ظنك فكذب بحت؛ لأنّ قولك مع علمك بصحة أمري **﴿إني لأظنك مسحورًا﴾** قول كذاب، وقال الفرّاء مبثورًا: مصروفًا عن الخير مطبوعًا على قلبك، من قولهم: ما ثبرك عن هذا أي: ما منعك وصرفك، وقرأ أبيّ بن كعب: وإن أخالك يا فرعون لمثبورًا على إن المخففة واللام الفارقة.

فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾.

﴿فأراد﴾ فرعون أن يستخف موسى وقومه من أرض مصر ويخرجهم منها، أو ينفيهم عن ظهر الأرض بالقتل والاستئصال، فحاق به مكره بأن استفزه الله بإغراقه مع قبطه **﴿اسكنوا الأرض﴾** التي أراد فرعون أن يستفزكم منها **﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾** يعني: قيام الساعة **﴿جئنا بكم لفيفًا﴾** جمعًا مختلطين إياكم وإياهم ثم يحكم بينكم ويميز بين سعدائكم وأشقيائكم، واللفيف الجماعات من قبائل شتى.

وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾.

﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾ وما نزل القرآن إلا بالحكمة المقتضية لإنزاله، وما نزل إلا ملتبسًا بالحق والحكمة لاشتماله على الهداية إلى كل خير، أو ما أنزلناه من السماء إلا بالحق محفوظًا بالرصد من الملائكة، وما نزل على الرسول إلا محفوظًا بهم من تخليط الشياطين **﴿وما أرسلناك﴾** إلا لتبشرهم بالجنة وتنذرهم من النار، ليس إليك وراء ذلك شيء من إكراه على الدين أو نحو ذلك.

وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾.

﴿وقرآنًا﴾ منصوب بفعل يفسره **﴿فرقناه﴾** وقرأ أبيّ: فرّقناه بالتشديد أي: جعلنا نزوله مفرقًا منجمًا، وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قرأه مشدّدًا وقال: لم ينزل في يومين أو ثلاثة، بل كان بين أوّله وآخره عشرون سنة يعني: أن فرق بالتخفيف يدل على فصل متقارب **﴿على مكث﴾** بالفتح والضم على مهل وتؤدة وتثبت **﴿ونزلناه تنزيلًا﴾** على حسب الحوادث.

قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾.

﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾ أمر بالإعراض عنهم واحتقارهم والازدراء بشأنهم، وأن لا يكترث بهم وبإيمانهم وبامتناعهم عنه، وأنهم إن لم يدخلوا في الإيمان ولم

(1) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل، (الحديث رقم: 3144).

(2) سورة البقرة، الآية: 260.

(3) سورة النمل، الآية: 14.

يصدّقوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك. فإن خيرًا منهم وأفضل وهم العلماء الذين قرؤا الكتب وعلموا ما الوحي وما الشرائع قد آمنوا به وصدّقوه، وثبت عندهم أنه النبي العربيّ الموعود في كتبهم، فإذا تلي عليهم خرّوا سجدًا وسبّحوا الله تعظيمًا لأمره ولإنجازه ما وعد في الكتب المنزلة وبشّر به من بعثة محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه، وهو المراد بالوعد في قوله: ﴿إن كان وعد ربنا لمفعولاً، ويزيدهم خشوعًا﴾ أي: يزيدهم القرآن لين قلب ورطوبة عين.

فإن قُلْتَ: ﴿إنّ الذين أوتوا العلم من قبله﴾ تعليل لماذا؟ **قُلْتُ:** يجوز أن يكون تعليلاً لقوله: ﴿آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾ وأن يكون تعليلاً لقل على سبيل التسلية لرسول الله ﷺ، وتطييب نفسه كأنه قيل: تسل عن إيمان الجهلة بإيمان العلماء، وعلى الأوّل: إن لم تؤمنوا به لقد آمن به من هو خير منكم.

فإن قُلْتَ: ما معنى الخرور للذقن؟ **قُلْتُ:** السقوط على الوجه، وإنما ذكر الذقن وهو مجتمع اللحيين؛ لأنّ الساجد أول ما يلقى به الأرض من وجهه الذقن.

فإن قُلْتَ: حرف الاستعلاء ظاهر المعنى إذا قلت خرّ على وجهه وعلى ذقنه، فما معنى اللام في خرّ لذقنه ولوجهه؟ قال: فخرّ صريعًا لليدين وللفم. **قُلْتُ:** معناه: جعل ذقنه ووجهه للخرور واختصه به؛ لأنّ اللام للاختصاص.

فإن قُلْتَ: لم كرّر ﴿يخرّون للاذقان﴾؟ **قُلْتُ:** لاختلاف الحالين وهما: خرورهم في حال كونهم ساجدين، وخرورهم في حال كونهم باكين.

قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنهما سمعه أبو جهل يقول: يا الله يا رحمٰن، فقال: إنه ينهانا أن نعبد إلٰهين وهو يدعو إلٰهًا آخر. وقيل: إن أهل الكتاب قالوا: إنك لتقل ذكر الرحمٰن، وقد أكثر الله في التوراة هذا الاسم، فنزلت. والدعاء بمعنى: التسمية لا بمعنى: النداء وهو يتعدّى إلى مفعولين تقول: دعوته زيدًا، ثم يترك أحدهما استغناء عنه فيقال: دعوت زيدًا، والله والرحمٰن المراد بهما الاسم لا المسمى، وأو للتخيير فمعنى ﴿ادعوا الله أو ادعوا الرحمٰن﴾ سموا بهذا الاسم أو بهذا، واذكر وإمّا هذا وإمّا هذا. والتنوين في ﴿أيًا﴾ عوض من المضاف إليه و ﴿ما﴾ صلة للإبهام المؤكد لما في أيّ آي: أي هذين الاسمين سميتم ونكرتم ﴿فله الأسماء الحسنى﴾ والضمير في فله ليس براجع إلى أحد الاسمين المذكورين ولكن إلى مسماهما وهو ذاته تعالى؛ لأنّ التسمية للذات لا للاسم، والمعنى: أيًامًا تدعوا فهو حسن فوضع موضعه قوله: فله الأسماء الحسنى؛ لأنه إذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الاسمان لأنهما منها، ومعنى كونهما أحسن الأسماء: أنها مستقلة بمعاني التحميد والتقديس والتعظيم ﴿بصلاتك﴾ بقراءة صلاتك على حذف المضاف لأنه لا يلبس، من قبل أن الجهر والمخافتة صفتان تعتقبان على الصوت لا غير، والصلاة أفعال وأنكار، وكان رسول الله ﷺ يرفع صوته بقراءته، فإذا سمعها المشركون لغوًا وسبوًا، فأمر بأن يخفض من صوته، والمعنى: ولا تجهر حتى تسمع المشركين ﴿ولا تخافت﴾ حتى لا تسمع من خلفك ﴿وابتغ بين﴾ الجهر والمخافتة ﴿سبيلاً﴾ وسطًا، وروي أنّ أبا بكر رضي الله عنه كان يخفي صوته بالقراءة في صلاته ويقول: أناجي ربي وقد علم حاجتي، وكان عمر رضي الله عنه يرفع صوته ويقول: أزجر الشيطان، وأوقظ الوسنان، فأمر أبا بكر أن يرفع قليلاً، وعمر أن يخفض قليلاً[1]، وقيل معناه: ولا تجهر بصلاتك كلها، ولا تخافت بها كلها، وابتغ بين ذلك سبيلاً بأن تجهر بصلاة الليل، وتخافت بصلاة النهار، وقيل: بصلاتك بدعائك، وذهب قوم إلى أنّ الآية منسوخة بقوله: ﴿ادعوا ربكم تضرعًا وخفية﴾[2] وابتغاء السبيل مثل لانتحاء الوجه الوسط في القراءة.

وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾.

﴿ولي من الذل﴾ ناصر من الذل ومانع له منه لاعتزازه به، أو لم يوال أحدًا من أجل مذلة به ليدفعها بموالاته.

فإن قُلْتَ[3]: كيف لاق وصفه بنفي الولد والشريك والذل بكلمة التحميد **قُلْتُ:** لأنّ من هذا وصفه هو الذي يقدر على إيلاء كل نعمة، فهو الذي يستحق جنس الحمد، وكان النبي ﷺ إذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه هذه الآية[4].

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة بني إسرائيل فرق قلبه عند ذكر الوالدين كان له قنطار في الجنة، والقنطار ألف أوقية ومائتا أوقية». رزقنا الله بفضله العميم وإحسانه الجسيم.

---

(1) رواه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل (الحديث رقم: 1329) والترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في قراءة الليل (الحديث رقم: 447).

(2) سورة الأعراف، الآية: 55.

(3) قال أحمد: وقد لاحظ الزمخشري ههنا ما أغفله عند قوله تعالى: ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم = الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ وقد رددت هذا الوجه فيما تقدّم، بأنّ هذه الجملة لا يليق اقترانها بكلمة التحميد، ولا تناسبها، فإنك لو قلت: ابتداء الحمد لله الذي الذين كفروا به يعدلون، لم يكن مناسباً، والله أعلم.

(4) رواه ابن أبي شيبة 1/348 كتاب الصلوات.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الكهف مكية

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾.

لقن الله عباده وفقههم كيف يثنون عليه ويحمدونه على أجزل نعمائه عليهم وهي نعمة الإسلام، وما أنزل على عبده محمد ﷺ من الكتاب الذي هو سبب نجاتهم وفوزهم ﴿ولم يجعل له عوجًا﴾ ولم يجعل له شيئًا من العوج قط، والعوج في المعاني كالعوج في الأعيان، والمراد: نفي الاختلاف والتناقض عن معانيه وخروج شيء منه من الحكمة والإصابة فيه.

فإن قُلْتَ: بم انتصب ﴿قيمًا﴾؟ قُلْتُ: الأحسن أن ينتصب بمضمر، ولا يجعل حالاً من الكتاب؛ لأنّ قوله: ولم يجعل معطوف على أنزل فهو داخل في حيز الصلة فجاعله حالاً من الكتاب فاصل بين الحال وذي الحال ببعض الصلة، وتقديره: ولم يجعل له عوجًا جعله قيمًا؛ لأنه إذا نفى عنه العوج فقد أثبت له الاستقامة.

فإن قُلْتَ: ما فائدة الجمع بين نفي العوج وإثبات الاستقامة وفي أحدهما غنى عن الآخر؟ قُلْتُ: فائدته التأكيد، فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من أدنى عوج عند السبر والتصفح، وقيل: قيمًا على سائر الكتب مصدقًا لها شاهدًا بصحتها، وقيل: قيمًا بمصالح العباد وما لا بد لهم منه من الشرائع، وقرئ: قيمًا. أنذر متعد إلى مفعولين كقوله: ﴿إنا أنذرناكم عذابًا قريبًا﴾[1] فاقتصر على أحدهما وأصله ﴿لينذر﴾ الذين كفروا ﴿بأسًا شديدًا﴾ والبأس من قوله: ﴿بعذاب بئيس﴾[2] وقد بؤس العذاب وبؤس الرجل بأسًا وبآسة ﴿من لدنه﴾ صادرًا من عنده، وقرئ: من لدنه بسكون الدال مع إشمام الضمة وكسر النون ﴿ويبشر﴾ بالتخفيف والتثقيل.

فإن قُلْتَ: لم اقتصر على أحد مفعولي أنذر؟ قُلْتُ: قد جعل المنذر به هو الغرض المسبوق إليه فوجب الاقتصار عليه، والدليل عليه تكرير الإنذار في قوله: ﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدًا﴾ متعلقًا بالمنذرين من غير ذكر المنذر به كما ذكر المبشر به في قوله: ﴿أنّ لهم أجرًا حسنًا﴾ استغناء بتقدم ذكره. والأجر الحسن الجنة ﴿ما لهم به من علم﴾ أي: بالولد أو باتخاذه يعني: أنّ قولهم هذا لم يصدر عن علم ولكن عن جهل مفرط وتقليد للآباء، وقد اشتملته آباؤهم من الشيطان وتسويله.

فإن قُلْتَ[3]: اتخاذ الله ولدًا في نفسه محال فكيف قيل: ﴿ما لهم به من علم﴾؟ قُلْتُ: معناه ما لهم به من علم؛ لأنه ليس مما يعلم لاستحالته وانتفاء للعلم بالشيء، إمّا للجهل بالطريق الموصل إليه، وإما لأنه في نفسه محال لا يستقيم تعلق العلم به. قرئ: كبرت كلمة وكلمة بالنصب على التمييز والرفع الى الفاعلية، والنصب أقوى وأبلغ وفيه معنى: التعجب، كأنه قيل: ما أكبرها كلمة و ﴿تخرج من أفواههم﴾ صفة للكلمة تفيد استعظامًا لاجترائهم على النطق بها وإخراجها من أفواههم، فإن كثيرًا مما يوسوسه الشيطان في قلوب الناس ويحدثون به أنفسهم من المنكرات لا يتمالكون أن يتفوّهوا به ويطلقوا به ألسنتهم، بل يكظمون عليه تشوّرًا من إظهاره، فكيف بمثل هذا المنكر؟ وقرئ: كبرت بسكون الباء مع إشمام الضمة.

فإن قُلْتَ: إلام يرجع الضمير في ﴿كبرت﴾ قُلْتُ: إلى قولهم: ﴿اتخذ الله ولدًا﴾ وسميت كلمة كما يسمون القصيدة بها.

شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به وما تداخله من الوجد والأسف على توليهم، برجل فارقه أحبته وأعزته، فهو يتساقط حسرات على آثارهم، وينخع نفسه وجدًا عليهم وتلهفًا على فراقهم. وقرئ: باخع نفسك على الأصل وعلى الإضافة أي: قاتلها ومهلكها، وهو للاستقبال فيمن قرأ إن لم يؤمنوا، أو للمضي فيمن قرأ إن لم يؤمنوا بمعنى: لأن لم يؤمنوا ﴿بهذا الحديث﴾ بالقرآن ﴿أسفًا﴾ مفعول له أي: لفرط الحزن، ويجوز أن يكون حالاً، والأسف المبالغة في الحزن والغضب يقال: رجل أسف وأسيف.

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾.

﴿ما على الأرض﴾ يعني: ما يصلح أن يكون زينة لها

---

(1) سورة النبأ، الآية: 40.

(2) سورة الأعراف، الآية: 165.

(3) قال أحمد: قد مضى له في قوله تعالى: ﴿وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾ أنّ ذلك وارد على سبيل التهكم، وإلا فلا سلطان على الشرك، حتى ينزل ونظيره.

= ولا ترى الضب بها ينجحر

وقد قدّمت حينئذ أنّ الكلام، وارد على سبيل الحقيقة والأصل، وأن نفي إنزال السلطان، تارة يكون لاستحالة إنزاله ووجوده، وتارة يكون، لأنه لم يقع، وإن كان ممكناً، والله أعلم.